من مجردة
إلى
عرش أنطاكية

سيرة حياة البطريرك إغناطيوس الرابع

منشورات جامعة البلمند

من مجردة
إلى
عرش أنطاكية

سيرة حياة البطريرك إغناطيوس الرابع

بقلم
إيلي أديب سالم

تمهيد

قصّةُ الشابِّ الذي أتى من محردة طفلاً لِيَشْغَلَ فيما بعد عرش أنطاكية، جديرةٌ بأن تُروى.

بدأتُ كتابة هذه السيرة من دون أن أفكّر طويلاً بالأسباب التي دعتني إلى ذلك. راقَ لي المشروع، خاصة وأن العديد من وجهاء المنطقة والخارج الذين كانوا يأتون لزيارة البطريرك ويسألون عن حياته، وعلومه، وأعماله، لم يحصلوا، للأسف، على أجوبة لأن المعلومات غير متوفرة. فالشخصيّة الأبرز في الكنيسة الأرثوذكسية المعاصرة، لم يُكتب عنها إلاّ القليل القليل.

حاولتُ أن أملأ هذا الفراغ منذ بضع سنوات، فنشرتُ في العام ٢٠٠١ البعض من عظاتِه، ومقالاتِه، وخطاباتِه في كتاب بعنوان "مواقف وأقوال"*.

يَروي كتابي اليوم سيرةَ حياة وقد كتبتُه بتصرّف كلّما تعلّق الأمر بوضع بطريركنا في إطار عصره. فلكي تكتبَ عن شخصٍ، عليك التوغّل في جذوره، في بيئته، في علومه، في عصره. حاولتُ جمعَ المعلومات بكلِّ ما أُوتيتُ من قدرة، فأجريتُ مقابلات مع غبطته في مكتبه في دمشق، وقابلت أفراد عائلته، واستجمعت معلومات أفادني بها مساعدي.

ليس هذا الكتاب عملاً أكاديميًا بحتًا. إذ لم يكن البحث الأكاديمي دافعي لكتابة هذا النصّ، بالإضافة إلى أنني لست مؤهّلاً للقيام بذلك.

في الشرق الأوسط، نعتمد كثيرًا الثقافة المحكية، ونادرًا ما نجري أبحاثًا معمّقة. وفي حال فعلنا، تكون جهودُنا متقطّعة وغيرَ متتابعة، ويصعب العثور عليها. ولما كان بطريركنا لا يقيم أهمية لشخصه، فهو لم يحفظ سجلاً يدوّن فيه أعماله وأحداث حياته، ولا قام أحدٌ من أفراد عائلته بهذه المهمة.

*صدر هذا الكتاب ايضًا باللغة الإنكليزية تحت عنوان: *Orthodoxy and the Issues of our Time*
عن منشورات جامعة البلمند ودار النهار، بيروت، ٢٠٠٦.

وبما أنّ هذا الكتاب هو كتابي، ومحتواه يلخّص فهمي الشخصيّ للبطريرك، فأنا أتحمّل كامل المسؤولية في كلّ ما يخصُّ الأخطاء التي قد ترد فيه، إنْ على مستوى الأحداث، أو على مستوى التفسيرات. ولأنني لست ضليعًا باللاهوت ما تطرّقت إلاّ قليلاً جدًا للأمورِ اللاهوتية تاركًا هذا الموضوع للبحّاثة الأرثوذكسيين في علوم اللاهوت والتاريخ والثقافات.

يصدر هذا الكتاب باللغتين العربية والإنكليزية معًا لتسهيل إيصال مضمونه إلى أكبر عدد ممكن من القرّاء والمؤمنين. ولبلوغ هذه الغاية، أدرجت عددًا من الصور المعبّرة على أمل أن تضيف أبعادًا جديدة حيث لا تملك الكلمات قدرة التعبير عنها. وقد تسنّى لي، نتيجة قربي من العائلة، الحصول على صور العائلة وأخرى تظهر بطريركنا شابًا في محردة.

لا بدّ في النهاية من التعبير عن امتناني الكبير لِكُلّ مَن ساعدَني في هذا المشروع، مع شكر خاص لصديقي العزيز الدكتور يوسف هزيم، الأخ الأصغر لغبطته، لوقوفه دائمًا إلى جانبي ومساعدتي، وللدكتور جورج نحّاس الذي اقترح إجراء بعض التعديلات، وللأب جورج برباري الذي جمع المعلومات عن غبطته، وللسيدة كارلا سرحان لترجمتها هذا الكتاب من الإنكليزية إلى العربية، وللدكتور جورج دورليان لإشرافه على النصّ النهائي ونشره، وللسيدة ريما صراف لدورها في الاخراج الفنّي، وللدكتور فيليب هيو بلير لمراجعته الدقيقة للنص الإنكليزي، وللدكتور حسن ابيض لمراجعته الدقيقة للنص العربي، ولمساعِديَّ في مكتب الرئاسة، وبالأخصّ السيدة إيتامار دياب، والآنسة ندى جبّور.

إيلي أديب سالم

الفصل الأول

مقدّمة

الطّريق إلى دِمَشق

أكتب هذه السيرة في زمن يسود فيه التوتّر بين لبنان وسوريا. وقد كان لهذا العامل تأثيره من وقت إلى آخر على العمل الذي أقوم به. البطريرك إغناطيوس الرابع (هزيم)، موضوع هذا الكتاب، يعيش في دمشق. أما أنا، فأعيش في قرية صغيرة، تدعى بطرّام في منطقة الكورة بلبنان. كان انتقالي إلى سوريا للقائه مناسبة لألقي نظرة سريعة على واقع الحدود السورية-اللبنانية. في الظروف العادية، يمتحن معبر المصنع قدرة الإنسان على الصبر والمثابرة والتحمّل. إنّ نظرةً خاطفةً إلى الممرّ الضيّق الذي لا يتّسع إلاّ لعبور سيارة واحدة، تكشف الطبيعة المعقّدة للتدابير البيروقراطية المعتمدة في البلدان النامية والشرق-أوسطية.

مئات من الشاحنات تصطفّ على طرفَي الطريق من جهتَي المعبر. البعض منها ينتظر دوره لأيّام، وأحيانًا لأسابيع قبل أن يحصل على تصريح بالعبور. الباصات، السيارات الخاصة، وسيارات الأجرة تتسابق لحجز مكان في صفّ يَعِد بخلاص قريب. أما السائقون، فيتسابقون من مكتب إلى آخر من أجل لفت انتباه ضابط، والحصول على توقيعه. في هذه الأثناء، كنت ألتزم بعزم مكاني في السيارة، فيما كان سائقي، "سعادة"، يخترق صفوف السيارات حاملاً رزمة من الأوراق لتوقيعها.

كان ابتهاجه ينعكس عليّ ارتياحًا. هكذا تعلّمت كيف أتقبّل البيروقراطية برحابة صدر.

مع أنّ العُبورَ كانَ مُتَعَثِّرًا، إلاّ أنني أحسست وكأنّ جاذبية قوية تشدّني باتّجاه دمشق. لا شكّ في أن حافزًا فطريًّا في داخلنا، يدفعنا إلى المضيّ قُدُمًا، إلى السفر، إلى ترك أرضنا واختبار مكان آخر. مع أنّ اللبنانيين والسوريّين متشابهون إلى حدّ بعيد، إلاّ أنّ السوريّين قد احتفظوا ببعض المميزات التي أُقَدِّرُها: الضيافة، هذه الطريقة العربيّة العريقة للبرهان على الاحترام واللياقة، والبساطة التي أصبحت نادرة اليوم في مجتمعاتنا المُزَوّدة بالتكنولوجيا المتطوّرة، ولاسيما في عاصمة لبنان الكوزموبوليتية.

أَنْ يُعانِيَ هذان البلدان، المتقاربان جدًا من حيث اللغة والتاريخ والديانات والعادات الاجتماعية، من علاقات متوتّرة بينهما، لَهُوَ درس من دروس التاريخ الغامضة.

في الثمانينيات، عندما كنت أشغل منصبًا سياسيًا في لبنان كوزير للخارجيّة، عملتُ جاهدًا على إنجاز وثيقةٍ تنظّم العلاقات بين البلدَين الشقيقَين. لكنَّ الوثائقَ تُجهَضُ أحيانًا بفعل تطوُر الأحداث، والأحكام الخاطئة، وبسبب التدخُلات الخارجيّة وطموحات النخبة الحاكمة.

وما الحدود إلاّ طريقة للتعبير عن واقع سياسي، فهي تفرّق، ولكن جزئيًا فقط. المثال على ذلك أن الأرثوذكسيّين بقَوا موحّدين في لبنان وسوريا، يرئسهم بطريركٌ واحد. بإمكان البطريرك أنْ يَكُونَ لبنانيًّا أو سوريًّا. وكذلك

الأمر بالنسبة للمطارنة، إذ يُعَيَّنون في أبرشياتهم بغضّ النظر عن كونهم سوريّين أو لبنانيّين. قد يأتي على رأسِ أبرشيّةٍ في لبنانَ مطرانٌ سوريٌّ، والعكس صحيح. ومن اللافت أن تضمّ أبرشية عكار مناطق سورية، وأن ينتشر الأرثوذكس الأنطاكيون اليوم في كل أنحاء العالم وخاصة في بلدان القارة الأميركية، حيث يترأس المطران العديد من المؤسسات المؤلّفة بشكل رئيسي من لبنانيين وسوريين.

عندما أكتب عن البطريرك، فأنا أتأمّل في موضوع هو أبعد من صخب الأحداث التي تجد طريقها إلينا كلّ يوم، لا بل في كلّ ساعة. لعلّني لست الشخص الأفضل للكتابة عن شخصيّةٍ تاريخيّةٍ في الكرسيّ الأنطاكيّ. وبالتأكيد لست كاتبًا، ولا شيء يضطرني إلى إصدار هذا الكتاب. لطالما قلت لزملائي في جامعة البلمند إن مستقبلي صار ورائي. لذا أستطيع أن أكتب وأتصرّف بحرّية تامة، غيرَ مبالٍ بالنجاح أو الفشل.

أكتب عن البطريرك لأنني، ببساطة، أحببت أن أقوم بهذا العمل في عالمنا المسمّى، خطأً أو صوابًا، بالعالم المتطور حيث يُنسى الجيّد، ويُعزَلُ اللامع، ويُساءُ فهم المتفاني. ربما هذه الأسباب هي التي جعلتني أرى أنه من الملحّ أن أكتب عن شخص يتحلّى، ليس بموهبة الروح والعقل فحسب، بل بالتواضع حصرًا.

في بعض الأحيان، تؤدّي الكتابة عن شخص إلى اكتشاف الذات. فيضع الكاتب نفسه في هذا الموقع؛ لأنه يحاول فهم الآخر وإفهامَهُ للآخرين.

في كتابتي عن البطريرك، قد أكون في رحلة لاكتشاف الذات. البطريرك هو رأس كنيستي الأرثوذكسية. إنّه يتحدّر من بلدة سوريّةٍ، وأنا من قرية لبنانية، والاثنتان أرثوذكسيّتان بالكامل. قريتي بطّرام قديمة جدًا، كانت موجودة قبل المسيح، والدليل على ذلك احتواؤها آثارًا لمعبد الإله الفينيقي أشمون. نحن القرويّين الأرثوذكسيّين نتّبع الطريق المرسوم لنا في المعموديّة، والقدّاس الإلهي يومَ الأحد، ومراسم العرس، والشعائر الدينيّة الأخرى، ولكنّنا لا نعرف إلا النَّزْرَ اليسير عن الأرثوذكسية كعقيدة، وتاريخ، وواجبات أخلاقية. ومع أنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة بُنيَت على أُسُسٍ تاريخيّةٍ متينة، إلا أنها واجهت العديد من العقبات. في الصعوبات، يختبر الناسُ ضعف إيمانهم. لقد عاش الأنطاكيون سنين طويلة في ظلّ أنظمة إسلاميّة فرضت الكثير من القيود على ممارستهم لشَعائرَهم الدينية. كما أن تدهور وضعهم الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي تحت الحكم العثماني كان له أثره على إيمانهم، وعلى ممارسة شعائرهم الدينية. وقد استمرّ هذا التأثير على العديد منهم حتى أيامنا هذه.

اللّقاءات الأولى

حتى العام ١٩٩٣، وهو العام الذي أصبحت في أواخره رئيسًا لجامعة البلمند، لم أكن أعرف الرجل جيدًا. كان صديقًا لوالدي ولقريبي المرحوم الدكتور خليل سالم، مدير عام وزارة المالية، الذي اختطف واغتيل في بداية حرب لبنان الداخلية، في العام ١٩٧٦. إن شخصية الإكليريكي الشاب، المتوسط الطول، ذي اللحية السوداء الذي يتحدّث مع والدي، جليّةٌ في ذاكرتي. ومن المحتمل أن يكون طَريقانا قد التقيا في حرم الجامعة

الأميركية، في أربعينيات القرن الماضي. ولكن مع الوقت، صار اسمه مألوفًا بالنسبة إليّ. إنه المطران هزيم الذي أعاد بناء دير البلمند التاريخي روحيًا، وثقافيًا، ومادّيًا. وهو معروفٌ، من قبل عائلتي، كإكليريكي لامع، وفيلسوف، ومتصوّف، ولكنه بنَّاء إصلاحي يتّصف بالعزم.

بالنسبة إليّ، كما بالنسبة إلى كلّ أبناءِ جِيلي من الشباب الأرثوذكسي، الكنيسة قائمة هنا، ومسَلَّم بوجودها. إنها ملجؤنا، وعزاؤنا. إنها كاتدرائية، وكاهن، وشعائر كجزء مكوّن من حضورها. أنتَ تتعمّد في الكنيسة، تتزوّج فيها، تحتفل بأعيادها، وتدخل في سُبات عميق على يد كهنتها الذين يتركونك مع أمل بالقيامة في يوم الدينونة. تتّبع الكنيسة في قريتي روزنامة تقليدية تعود إلى قرون المسيحية الأولى. أمّا أنا شخصيًا، فلم أتعمّق في الكتاب المقدّس وتاريخ الكنيسة إلاّ بعد تخرّجي من الجامعة. إن ذكرى المطران بلباسه الأسود، أحيت فيّ، فكريًا، الاهتمام بالكنيسة، ولكني حُرمت حظ التكلّم في العمق مع من جعلوا من الكنيسة التزامًا لحياتهم.

عندما صرت وزيرًا في الثمانينيات، كنت أعلم أن المطران، البلمندي الشهير، صار بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس. كان معروفًا لدى رئيس الجمهورية آنذاك، أمين الجميّل، والزملاء في الحكومة، بوَرَعه، وتعاليه عن كل الأمور اليومية والدهرية. كان محط احترام وتقدير لموقعه الكهنوتي الكبير.

كانت مفاجأة كبيرة عندما التقيته، ذات مساء، في القصر الجمهوري، يحثّ رئيس الجمهورية على أن يكون عادلاً في اعتباراته الطائفية في ما يتعلّق

بالتعيينات. كان شعوره في حينه أن الرئيس يعيّن موارنة في مناصب كانت مخصّصة للأرثوذكس. لاشكّ في أنه كان تحت ضغط سياسيين بارزين في الوسط الأرثوذكسي لكي يتحدّث بذلك إلى الرئيس مباشرة. طلب الرئيس مني ومن غسان تويني أن نحضر الاجتماع والعشاء الذي تلاه. فعلى الرغم من أن البطريرك لم يكن يعرفني جيدًا، إلاّ أنه كان ودودًا جدًا يومذاك.

كان صديقًا لغسان تويني، إذْ إنهما درسا معًا في "الانترناشيونال كولدج" ومن ثم في الجامعة الأميركية في بيروت.كانت الصداقة التي تربط البطريرك بغسّان تويني خاصة ومميّزة، واستمرّت كذلك على الرغم من العوائق الكثيرة التي اعترضتها. في تلك الأمسية، كان البطريرك يتكلّم، ببلاغة، عن شعوره تجاه لبنان وتعدّديته الديموقراطية. وبما أن التعيينات شأن بيروقراطي، وليست فقط نتيجة لجدارة الأشخاص بل لانتماءاتهم المذهبية، قال البطريرك: "نحن الأرثوذكس نريد حصتنا". فما كان من الرئيس الجميّل، السياسي الماهر الذي يكنّ شعورًا خاصًا للإكليريكي المحترم، إلاّ أن أجابه بسرعة: "ولكن يا غبطة البطريرك، أقرب اثنين من مستشاريّ إليّ هما غسان تويني وإيلي سالم، وعليه فأنا مهتم بالأرثوذكس". "أبدًا، أجابه البطريرك، غسان ليس موظفًا، وليس له مركزٌ إداريّ. إنّه إلى جانبك بوصفِهِ صديقَك، هو حُرٌّ في المجيء أو الذهاب. أما بالنسبة إلى إيلي، فبالإضافة إلى أنه لا يشغل منصبًا إداريًا، فهو يكاد ألاّ يكون أرثوذكسيًا. ومن المحتمل أنه لا يعرف ما هي "القلاّية" وأين توجد". قالها بشيء من الدعابة. كنت أعرف أن "القلاّية" كلمةٌ يونانيّةُ الأصل، ترمز إلى مقرّ المطران. وكنت أعرف أيضًا أن "القلاّية" التي كان يشير إليها البطريرك،

توجد في حيّ السراسقة في الأشرفية في بيروت، وقد تعرّفت على المطران الياس (عودة) هناك، إذ كنت أزوره باستمرار لأخبره عن القضايا السياسية التي كنّا نعالجها. فأجبت ممزاحًا: "ما هي "القلاّية"، وأين توجد؟". "أرأيتَ، أجاب البطريرك، نحن الأرثوذكس لسنا ممثَّلين جيّدًا، وها هو أقرب مستشاريك يكاد لا يعرف شيئًا عنّا". غريب أمر الكلمات، والحركات، والأمزجة، وكيف أنها تصلح المواقف أو تخربها. مسار الحديث ذلك المساء، قرّبني كثيرًا من رأس كنيستنا وجذبني إليه أكثر فأكثر. أحببت طريقته المميزة بالكلام، وأحببت عناده، وروح النكتة عنده، كما أحببت ثقته المطلقة بنفسه وتقديره العالي للمنصب الذي يشغله.

في العام ١٩٨٨، عندما كنت أستعدّ لترك موقعي الرسمي؛ لأن عهد الرئيس الجميّل الدستوري كان على وشك الانتهاء، كان البطريرك يعلن إنشاء جامعة البلمند. كنت فخورًا بأن يكون الرئيس الجميّل هو الذي وقّع مرسوم إعلان تأسيس الجامعة، وقد تابعت باهتمام بالغ قيام هذه الجامعة في شمال لبنان. تركتُ الوزارة وأسّستُ مركز أبحاث يهدف إلى دراسة شؤون لبنان والإسهام في تحسين نظامه الديموقراطي. في العام ١٩٩٣، بعد تعيين رئيسين متتاليين للجامعة، طلب مني البطريرك وغسان تويني، رئيس الجامعة آنذاك، ورجل الأعمال المعروف عصام فارس، أن أتقدّم بطلب ترشّحي لرئاسة الجامعة إلى مجلس الأمناء الذي كان سيلتئم في خريف العام ١٩٩٣. قبلت من دون تردّد. ومنذ ذلك الحين، توطّدت معرفتي بالبطريرك. أردت أن أجعل من جامعة البلمند مؤسسة حقيقية للتعليم العالي، تكون فخرًا للأرثوذكسية. في الوقت نفسه، صرت أكثر ميلاً للعيش في بطرّام، القرية التي ولدت فيها والتي تبعد

سبعة كيلومترات، فقط، عن الجامعة. لم يكن ذلك تحوّلاً خاطئًا في خِضَمِّ عالم أواخر القرن العشرين الصاخب. لعلّ في الإنسان شيئًا مشابهًا للكثير من الأحياء، ألا هو الحنين إلى الجذور، إلى بساطة الحياة التي عرفها في شبابه.

بطَـرّام

بطرّام، التي تمارس عليّ جاذبية قوية، قرية صغيرة شأن القرى الخمسين الأخرى في قضاء الكورة، وهي معقل للأرثوذكسية، منذ بدايات المسيحية. من هذه القرى الخمسين، فقط خمس قرى هي غير أرثوذكسية، مسلمة أو مارونية. أقصى ما يمكن أن تذهب إليه ذاكرتنا، نحن آل سالم، هو معرفتنا أنّنا عشنا منذ القِدَم في بطرّام، وتفاعلنا مع كافة عائلاتها. فأمّي متحدّرة من عائلة مالك، وهي الوحيدة من بين إخوتها وأخواتها العشرة التي بقيت في بطرّام ولم تهاجر إلى أستراليا. جيراني هم من آل سرحان، العائلة الثانية أو الثالثة من حيث العدد، في قرية مؤلفة من ستّ عائلات ومن ٩٥٠ نسمة. الكورة هي حصن للأرثوذكسية، وهي التجمّع الديني القرويّ الوحيد من نوعه في البلاد. لذا كانت فكرة البطريرك صائبة، عندما قرر تأسيس جامعة في البلمند، هذه التلّة الرائعة في القسم الغربي من الكورة، التي تشرف على طرابلس وتطلّ على البحر المتوسط. لا يمكنك أن تقف هناك، وتحدّق في الأفق اللامتناهي من دون أن تتذكّر السفن الفينيقية التي كانت تتحدّى الأمواج والمجهول لولوج عوالم جديدة بهدف التجارة والتفاعل مع مجتمعات أخرى. في الوقت المناسب، أنشأ هؤلاء الفينيقيون الجُرَآء، الذين أتوا من طرابلس، وبيبلوس، وبيروت، وصيدون، وصور، مستعمراتٍ

تجاريّةً على طول ساحل المتوسّط، حتى إنهم أقدموا على اختراق المحيط الأطلسيّ والجزر البريطانيّة. واحدة من هذه المستعمرات كانت قرطاج التي هي الآن قسم من تونس الحديثة، صارت شهرتها عالمية، وتحدّت روما نفسها بهدف السيطرة على المتوسط. كما أن هناك أميرًا فينيقيًا، هدّد الحاكم الروماني، مذكّرًا إياه بأن البحر المتوسط هو بحيرةٌ فينيقيّة، ولا يحقّ لروماني أن يغسل يديه فيها من دون إذن مسبق.

الجامعة الجديدة التي أرئسها الآن، تتربّع على قرون من التاريخ، وتَحْمِلُ وعدَ رجلٍ رؤيويّ، هو الآن بطريركٌ يرعى أمورَ رعيّتِهِ من مقرّه البطريركيّ في دمشق.

في دَيْر مَار الياس

كلّما طالَتْ إقامَتي في الجامعة، تضاعفت حاجتي للتعرّف إلى الأرثوذكسية، وإلى مؤسّس الجامعة، وكذلكَ تزايد شعوري بأنّ من واجبي أنْ أنشر كلّ ما أملكه من معلومات عن الكنيسة ومكانتها في التاريخ.

كثيرًا ما التقيت البطريرك بصفته رئيسًا لمجلس أمناء الجامعة. ولكنني التقيته أيضًا في الأديرة التاريخية التي تشبه دير البلمند، وهي تعود إلى القرون الوسطى. كانت الأديرة قلاعًا، منتشرة في لبنان وسوريا، ومبنيّةً على تلال خلاّبة على أكتاف الأوديةِ الشديدة الانحدار. أما الأديار التي ينزل فيها البطريرك في زياراته الرعوية، فهي أديار بطريركية، أي أن مرجعيتها هي البطريركية في دمشق وليس مطرانية الأبرشية. كلّ واحد من هذه الأديار هو تاريخ بحدّ ذاته، إنه مركز للرعية

يستقطب المؤمنين والأصدقاء في المناسبات الخاصة. وقد سبق وأشرفت شخصيًا على كتاب أصدرته الجامعة بعنوان "أديار الكرسي الأنطاكي" في العام ٢٠٠٧، وهو كتاب علمي يشرح بشكل مفصّل تاريخ هذه الأديرة وأدوارها في مجتمعاتها.

اعتدتُ لقاء البطريرك في دير مار الياس شوَيّا بضهور الشوير. إنه ديرٌ على شكل قلعة، تحضنه واحدة من أعلى قمم جبل لبنان. وليس من الصعب تصوّر المكان الذي كتب فيه أجدادنا أحلى كلمات الحبّ والوفاء للخالق، وهم يتأمّلون حروف الجبال. فالوجهة هناك روحيّة وجغرافيّة في آن واحد. تنظر برهبة إلى الأعالي، وبمحبة واحترام إلى البشر في هذه القرى المعلّقة فوق منحدرات مشرفة على أودية ضيقة تعود إلى الزمن الجيولوجي. ولعلّ ما جعل الكنيسة الأرثوذكسية تبني أديرتها وكنائسها على أعلى التلال في لبنان وسوريا، هو دافع التعبير عن الفخر والثقة بالنفس اللذين أحسّ بهما المسيحيون الأوائل في ظل الإمبراطورية البيزنطية. بتوجّههم نحو التلال، كان الأنطاكيون يحاكون تقليدًا سارت عليه ديانات المشرق القديمة التي بَنت معابدها على أعالي التلال. في مرحلة لاحقة، استولى الأنطاكيون على هذه المعابد وحوّلوها إلى كنائس وكاتدرائيات.

عُهِد بدير مار الياس إلى المطران الياس (نجم). الاسم المناسب في المكان المناسب! وكما فعل أسلافه قديمًا، راح المطران الياس يهتمّ بالأرض، ويعيش من منتوجاتها. تمتد الأرض من أعلى تلّة الدير إلى الوادي، وكأنها قرية بحدّ ذاتها. في الأيام الغابرة، كانت المئات من الأيادي تعمل في هذه الأراضي. كانوا يهتمون بحقول التفاح، والكرز، والتين، والعنب. ويُعيرون أشجار التوت اهتمامًا خاصًا؛ لأنها كانت ضرورية لإطعام دود القزّ، ومن ثَمّ لصناعة الحرير،

ليس فقط من أجل لبنان، فالحرير كان يُصَدّر إلى موانئ فرنسا الجنوبية. زرعوا القمح، والشعير، والبطاطا، والبصل والثوم، وكل ما كان يستهلكه الناس. كانت المدينة الساحلية الأقرب تبعد خمسين كيلومترًا، وكان الوصول إليها صعبًا عبر طرقات ملتوية، رسمتها حوافر الأحصنة والبغال، وليس يد الإنسان. هكذا، حصلت الأديرة وحشود المؤمنين المرتبطة بها على استقلالية كبيرة عن الخارج، وتعلّقت بشغف بالكنيسة.

كان البطريرك يزور الدير من وقت إلى آخر، خاصة خلال فصل الصيف. ذات مرّة، كنا جالسين نتحدّث في الصالون المعقود، وإذا بغيمة تدخل بهدوء من الشباك، ثم تخرج خلسة من الباب. وسرعان ما لحقت بها غيمة أخرى على شكل ضباب كثيف متّبعة الطريق نفسه، كما لو أن هذه الغيوم كانت تذكّرنا بأن الطبيعة موجودة منذ الأزل، وهي ستبقى في مكانها بعد أن نكون نحن قد رحلنا.

إن نظرة إلى حجارة جدران الدير، هذه الجدران التي تمثّل ما تبقّى من القلاع الدفاعية، تكفي لِتُشعرَك بأن هذه الأمكنة لن تزول. إلاّ أن المفارقة تكمن في أن الشعور، بحدّ ذاته، زائلٌ!

شخصيّة إصلاحيّة

في نقاشاتي مع البطريرك، تكوّنت لديَّ فكرة عن واقع الكنيسة، وكم نحن بحاجة إلى النهوض بها لتصل إلى مستوى توقعاته. في الزمن الإنساني، على التوقعات أن تتواضع شيئًا فشيئًا لتلامسَ أمور الحياة وتتعامل مع

ضرورات الواقع الراهن. فالكنيسة، كغيرها من المؤسسات في الشرق الأوسط، كانت راقدة. كاتدرائياتها وكنائسها شاخت ولبست ثوب الإهمال. رعيّتها خرجت، قلقة وفقيرة، من رحم الامبراطوريات والسلطنات. في مواجهة هذه الحقائق، يجد راعي الكنيسة نفسه أمام خيارين: إما أن يرئس المؤسسات الموجودة ويتلمّس طريقه في ظل الظروف القائمة، وإما أن يتحدّى الواقع ويحاول تغييره. الخيار الأول سهل، وهو الطريق الذي يُسلك عادة. أمّا الطريق الثاني فهو الأقل سلوكًا؛ لأنه الأصعب.

عندما نفكّر بتاريخنا على ضوء آخِرِ التطوّرات التكنولوجية، نعجب كم أن الأمور كانت بطيئة وثابتة. فالعادات، والتقاليد، والأعراف تحكّمت بأمور البشر. وكان يُنظر إلى التغيير على أنه أمر مستغرَب وخطير. لقد خاطر الإصلاحيون بأفكارهم، وغالبًا ما رُجموا، أو أُعدموا، أو أُحرقوا. كانت الإصلاحات تهدّد النخبة وتخلط الأوراق. عمل القادة، الحاليون وأسلافهم، الكثير للوصول إلى ما هم عليه، وهم ليسوا مستعدين لتسليم كلّ شيء لِمُحدَثِي النعمة. والكنيسة، شأنها شأن كلّ مؤسسة إنسانية، عُرضةٌ لِتَحَكُّم الرَّتابة التي تشدّها إلى الأسفل، إلى آخِرِ موقع يمكن أن تمارس منه المقاومة. عليها أن تتأقلم مع شروط الفاتحين، وتساوم لتصمد.

إنه لجَليّ أنّ البطريرك رجل إصلاحيّ، ورؤيويّ، ومتحدٍّ للعادات البالية. فكلّما زار ديرًا، لاحظ فورًا أن الدير مهمَل، صامت، وليس أكثر من كومة من الحجارة، مع ومضة من روح ترفرف فوقه. وعندما يترأّس البطريرك قدّاس الأحد كان يرى الشرخ الكبير بين عظمة الليتورجيا وعمقها من جهة، وفقر الشعب الذي يشارك فيها وحرمانه من جهة أخرى. كان يتحسّر على هذا

التمسّك بالشكليّات، المفرَّغ من جوهره. كما في كلّ الإصلاحات الجدّية، يتّجه المرء إلى المُساءلة، وإثارة القضايا، وإلى اقتراح بدائل. عندما تكثر المسؤوليات، تكثر الحاجة إلى مساعدين وتلاميذ ينشرون الرسالة. لكنّ تدريب المساعدين وإقناع التلاميذ يحتاج إلى الكثير من الوقت. وقد لا يكون الوقتُ لمصلحة الإصلاحيّ. حتى لو نجح الإصلاحيّ، يكون نجاحُه دائمًا جزئيًا. أما مسيرة الإصلاح فيمكن أن تكون مؤلمةً ومثبطةً للعزم. على الرغم من ذلك، فالتغيير موجود في كلّ مكان. إنه سمةٌ مميِّزة للقرن الواحد والعشرين. القرنان التاسع عشر والعشرون أعطَيا لفلسفة التغيير والإصلاح دفعًا كبيرًا. لكن يبدو أن القرن الواحد والعشرين هو الذي سينجز عملية التغيير حتى الثورة. تفتح العلوم والتكنولوجيا آفاقًا جديدة، وتُسائل المعايير المعتمَدة. فالمنهج العلميُّ كسب الكثير من المصداقية، وهو الآن يدقّ أبواب كلّ المؤسسات العلمانية منها والدينية، الوطنية منها والتجارية، ويدعوها إلى مواجهة تحدّياته. وكسبت هذه الدعوة الكثير من الزخم، بفضل موجة العولمة التي نَفذَت إلى كلّ زوايا كوكبنا وخباياه. هناك مدّ وجَزْر في المواجهة بين القديم والحديث، ومحاولات التسوية هي بأكثرها سطحية، وظاهرية. يصحّ الأمر بالنسبة إلى المؤسسات العلْمانية والدينية على حدٍّ سواء، كما أنه لا يختلف من حضارة إلى أخرى. نحن نشهد حضارة واحدة تتولّى تمثيل كلّ مظاهر الحضارات الغربية، بينما هي في الوقت عينه تحفر عميقًا في ماضيها كي تحاول إحياءه. في الواقع، عندما تتحدّى ثقافةً ما، تجدها تعود إلى معتقداتها التقليدية كتأكيد لهويتها في مواجهة التحديات. الأصولية في الشرق الأوسط هي عرض من أعراض هذه المواجهة، وهي مقاومة شرسة ضدّ التغيير. لذا يغرق الإصلاحيّ الدينيّ

اليوم في تشعّبات المشكلة ونطاقها الواسع، وقواها الجبّارة التي تشدّه نحو الفشل. إنه لَوَضْعٌ نَفْسِيٌّ يفرضُ ذاتَه، ويُملي بالتالي على الشخص المعنيّ اتّخاذَ قرارٍ مبكر. هل عليه أن يقبل بالواقع أو أن يتحدّاه ويفسد خطّتَه؟ وعندما يَختارُ المرءُ التحدّي، فهل سيكون النجاحُ حَليفَه؟ وإلى أيٍّ مَدًى؟ وهل تستحقُّ النتيجة كلَّ هذا العناء؟ أعتقد أنّ الرجل الذي كنت أتحدّث إليه في دير مار الياس شويّا، قد أخذ القرار منذ صباه، وأدرك أنه مختلف، فاختار وصمّم أن يتسلّح بهذه العلامة الفارقة، وبدأ محاولة ترجمتها إلى أعمال. فالصعوبات التي واجهها، والإحباطات التي مُني بها خلال عمله، لم تخفّفْ من تصميمه. لعلّه من السذاجة أن تقالَ الأشياءُ كما هي، ولكنّ النزاهة تقتضي الرجوع إلى البدايات. الحقيقة هي أنّني أحببتُ الرجل، كما أنني أحببتُ أفكارَه، وأحسستُ بحاجةٍ ملحّةٍ للكتابة عنه بحُريّة تامّة.

قد يقول ناقد إنني أكتب من منطلق نظرتي الخاصة التي لا تتطابق مع الأحداث. هناك حتمًا جزء من الحقيقة في هذا القول. كل مؤرخ، أو كاتب سيرة، أو ناقد، يكتب من زاويته الخاصة. وفي هذا السياق، يشكّل الانتقاء جزءًا لا يتجزّأ من عملية الكتابة نفسها. المؤرِّخ، الموجود في شخص كلّ من وضع قلمًا على ورقة، ينظر الى الماضي السحيق بقِمَمه وأوديَتِه، بتجاربه وأخطائه، بانتصاراته وهزائمه، فينتقي منه ما يعتبره ملائمًا وذا أهمية خاصة بالنسبة إلى موضوع كتابه. الكتابة عن رجل هي كالكتابة عن حركة أو أمّة، إنّها تُرغم الكاتب على الاختيار، على التركيز على نقاط محدّدة، وعلى البحث عن المواضيع الضِمْنية. لا يختلف التاريخ كثيرًا عن المحيطات المحتشدة بالأسماك المتنوعة. الصيد فيها يتحوّل إلى فنّ، فَنٍّ ذي هدف.

في مرحلة من المراحل، فوّضت أشخاصًا ودعمتهم لِوَضْع كتاب عن الكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية. أردت لهذا الكتاب أن يكون سَهل القراءة والفهم. حاول العديد من زملائي كتابة مسوَّدات، ولكنني لدى مراجعتها لم أشعر أنها تفي بالغرض. لقد كتب بعض المستشرقين البارزين كتبًا عن الإسلام، لاقت رواجًا واسعًا. وكتب الرّوس الأرثوذكس عن الأرثوذكسية، فسدّوا بذلك فراغًا كبيرًا في التعريف بتاريخ الكنيسة الشرقية. كتابي هذا ليس كتلك الكتب. إنه، في كل الأحوال، محاولة من قِبَل شخص أرثوذكسي جاد، في الكتابة عن رأس كنيستنا. بمجرد أن يكون هذا الكتاب مكتوبًا من قِبل شخص متخصص بالعلوم الاجتماعية، وليس من قبل لاهوتيّ أو كاهن، فإن هذا وحده يُكسبه بعدًا خاصًا، بالإضافة إلى أنه يطرح أسئلة لا تُسأل عادة في سياق الكتابات الكنسية.

هذه محاولةٌ أكثر ممّا هي دراسة، لذلك أعطيت لنفسي ما يكفي من الحرية لأغوص في الموضوع، وأغطّي أبعاده الأساسية، التي أرجو أن تشكّل موضوعًا قائمًا بذاته. بكل بساطة، أعتبر أن الموضوع هو الرجل؛ لأنه يجسّد قِيَم كنيسته، وجماعته، خاصة أنه يحاول جاهدًا إحياء هذه القيم في ضوء تحدّيات عصرنا العلمي والتكنولوجي.

الفصل الثاني

من محردة إلى بيروت

"ليس الإنسان جزيرة معزولة"، قَولٌ اعتَنَقَته الأُممُ التي قاتلت وانتصرت خلال الحرب العالمية الثانية، وهو مدوّن في الوثائق المعتمدة من قبل منظمة الأمم المتحدة. وبما أن الإنسان ليس جزيرة منفردة بنفسها، فكيف بالحريّ إذا كان الأمر يتعلّق بالأمم والتيارات؟ هناك من التفاعل والتشابك بين الشعوب والأحداث ما يحول دون فصلها عن بعضها. ولكي تفهم شخصًا ما فهمًا جيدًا، عليك أن تفهم محيطه والقوى المتنازعة حوله.

الوضع السياسي

١٧ نيسان ١٩٢٠ هو تاريخ ميلاد البطريرك، أو بالأحرى الطفل "حبيب" الذي كان يتحلّى بكلّ الصفات التي تخوّله تولّي دور جديد في عصر جديد. فأوائل العشرينيات هي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، ولأول مرّة في تاريخ الإنسان العاصف كانت الحرب عالمية بسبب المواصلات والتقنيات والامبراطوريات القائمة حينذاك. كان العالم كلّه في صراع. لقد جعلت التقنيات الحديثة هذه الحرب ممكنة. أما الحروب السابقة فكانت، على امتدادها، عملية إقليمية ومحصورة نسبيًا. تحاربت البلدان الأوروبية، ولم تُعر آسيا الانتباه الكافي لذلك. تصارعت البلدان الآسيوية، وكان الغرب

يكاد لا يعرف ما الذي يجري في هذه القارة البعيدة والهائلة الحجم. أما في أفريقيا، هذه القارة الواسعة والبعيدة والمكتفية بذاتها، فقد تحدّت فيها القبائل بعضها البعض، وتحكّمت متفرّدةً بقرار الحرب والسلم.

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أبحرت الأساطيل الأوروبية عبر المحيطات، و"اكتشفت" قارّات، وجزرًا، وحضارات غير معروفة من قِبَلها. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دفعت الأنظمة الاقتصادية الجديدة البلدان الأوروبية إلى الاستئثار بأراضٍ وشعوب في آسيا، وأفريقيا، وأوقيانيا؛ وإلى فتح أسواق جديدة، وإقامة مستعمرات فيها.

الامبراطورية العثمانية، امبراطورية كبيرة ومعمِّرة، استولت على المساحات ما بين أوروبا، التي كانت تستفيق لتوّها، والشرق النائم. فكانت بذلك مستعدّة لتولّي دور محوري في الصراع الذي يُعرف الآن بالحرب العالمية الأولى. لمدّة أربعة قرون، ظلّت الامبراطورية العثمانية تحكم العالم العربي وتسيطر عليه، انطلاقًا من اسطنبول، القسطنطينية سابقًا. كان العثمانيون من المسلمين السنّة، وهكذا كانت حال أغلبية مواطني العالم العربي آنذاك. أمّا الأقليات المسيحية في الامبراطورية، فكانت تتمتع بنوع من الحرية الدينية، إذ كانت في الواقع "مَحْمِيّة" من قبل النظام، الذي كان يُطلِق عليها اسم "أهل الذمة".

أدّت الحرب العالمية الأولى إلى تدمير الامبراطورية العثمانية. غير أن جنرالاً عثمانيًا فذًا نجح في إنقاذ الوطن التركي من بقايا الامبراطورية المحتضرة وفي تأسيس دولة تركيا الحديثة. مصطفى كمال أتاتورك (أبو الأتراك) أنقذ تركيا من الدمار العثماني، وقهر الجيوش الغازية في نهاية الحرب العالمية

الكبرى، ورفض المعايير العثمانية التقليدية، وفرض الأفكار الغربية الجديدة ومؤسساتها العلمية والعلمانية.

للمنتصر الغنائم. هكذا استولت فرنسا وبريطانيا، المنتصرتان في الحرب العالمية الأولى، على الشرق الأوسط الجديد، فاقْتطعتا العراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين من الامبراطورية. وكان هذا ما شرّعته عصبة الأمم: تقسيم جديد للعالم من أجل الحفاظ على سلام العالم الجديد وأمنه. أعطت عصبة الأمم لفرنسا حق الانتداب على سوريا ولبنان، الواحد تلو الآخر. كما أعطت لبريطانيا حق الانتداب على فلسطين والعراق والأردن. إبّان الحرب، وعَدَت بريطانيا الحركة الصهيونية بوطن في فلسطين. وكانت الشعوب في هذه البلدان، ولمدّة زمنية طويلة، جزءًا من امبراطوريات المنطقة: الأشورية، اليونانية، الرومانية، الأموية، العباسية، المملوكية، والعثمانية. إبّان الانتداب، بدأت هذه البلدان ترى نفسها للمرّة الأولى كبلدان تحت وصاية غربية. نظرت إلى مستقبلها بنوع من الخشية، كأنها تدخل في المجهول. رضخ البعض منها للأمر الواقع، والبعض الآخر رفض هذا الواقع وأراد نظامًا أوسع، نظامًا مألوفًا وشبه امبراطوري، وطنًا عربيًا ربما، أو حتى خلافة إسلامية. أما القسم المتبَقّي، فقد رحّب بسيرورة الحداثة التي أتت بها فرنسا وبريطانيا، اللتان كانتا تصنعان أنظمة سياسية على صورة أنظمتهما. استاء البعض من الحداثة، وكان يتحرّق شوقًا للعودة إلى القيم الإسلامية التقليدية.

كل الولادات عسيرة. وولادة البلدان العربية بعد الحرب العالمية الأولى، كانت عسيرة جدًا. كانت هذه الحقبة بمنزلة هزيمة للمسلمين السنّة،

المَمَثّلين بالامبراطورية العثمانية، في مقابل بزوغ شمس الأنظمة الجديدة في ظلّ الحضارة الغربية.

شكّل العام ١٩٢٠ مدخلاً لعددٍ من التغييرات المهمة. برزت حركات جديدة وأفكار جديدة للتعاطي مع الأحداث السياسية. ترجع جذور هذه الحركات إلى أواخر القرن الثامن عشر، إلى غزو نابوليون لمصر، وإلى أوائل القرن التاسع عشر والإصلاحات التي حاول إدخالها السلاطين العثمانيون. كان العرب يعيشون في ظل أنظمة استبدادية، أما الآن فهم يتمتعون بنظام دستوريٍّ حُرٍّ نسبيًّا يحاكي الأنظمة الدستورية الأوروبية. جدير بالذكر، في هذا السياق، أن بطريركًا عربيًا، وليس يونانيًا، قد تم انتخابه في العام ١٨٩٩ ليرئس كنيسة أنطاكية الأرثوذكسية.

لم يكن التطوّر سياسيًّا فقط، إذْ طرأت تغيّراتٌ طاولت المستوى الدينيّ أيضًا. فمع الثورة السوفياتية، كانت المادية الاشتراكية تحارب الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، فتراجع دور روسيا الأرثوذكسية في الشرق، وصار دور الكنيسة الروسيّة الأرثوذكسية والجمعية الامبراطورية في القدس في حكم المنتهي. لهذه التطوّرات تداعيات هدّامة على الكنيسة الأنطاكِيّة ورعاياها. فأتى ردّ الكنيسة على الخسارة حينذاك، بالاتكال على الله وعلى النفس.

هكذا كان المشهد، عندما كان حبيب، البطريرك المستقبليّ، لا يزال طفلاً. وفي هذا الوقت تحديدًا، حصل حدث مهم، إذْ أرسل بطريرك القسطنطينية (في العام ١٩٢٠)، القَلِق من صعود الفلسفة المادية نتيجة الهيمنة السوفياتية

على روسيا، رسالة إلى كلّ كنائس العالم، مستعجلاً إياها بإنشاء "مجلس الكنائس"، الذي أسس لحركة جديدة في الشرق الأوسط، وكان لبطريركنا المستقبليّ، إغناطيوس الرابع، دورٌ قياديٌّ فيها.

محـــردة

بينما كانت المدن الكبرى، كبيروت، ودمشق، وحلب، وبغداد، والبصرة، والقدس، تضجّ بالأفكار الجديدة، كانت الحياة في المناطق الريفية تسير بهدوء وبطء. هناك، كان الوقت يمرّ على مهل إذْ كانت التقاليد مسيطرة بإحكام على الشعب. وُلد حبيب في محردة، وهي بلدة من زمن التاريخ الدَوْري. لَكِن لمحردة ميزتين فريدتين. لقد كان كلّ سكّانها من المسيحيّين الأرثوذكس، بالإضافة إلى أنها ممتدّة على ضفاف نهر العاصي. كانت قرية مسيحيّة في محيطٍ إسلاميّ، وبجوار نهر متمرّد، تحدّى الأراضي السورية، وجرى شمالاً، فكان بذلك رمزًا مناسبًا للشاب اليافع في محردة.

محردة هي جزيرة إلى حدٍّ ما، وبلدة مغلقة على نفسها كما يقول المؤرّخ البريطاني آرنولد تُويْنبِي. إنها بلدة من الزمن البيزنطيّ، عندما كانت سوريا بالفعل، مهد المسيحية. انتشرت مئات البلدات مثل محردة في كل سوريا. كانت الكنائس والأديرة في كلّ مكان. عندما يتكلّم الأنطاكيون على دمشق، فهم يبدأون من نقطة البداية. يروون قصة شاول الذي دخل سوريا لملاحقة المسيحيّين. في طريقه إلى دمشق، انتشله السيد من سلبيته

ودعاه إلى الانضمام إلى المؤمنين، والكفّ عن محاربتهم. شاول المضطهِد تحوّل إلى القدّيس بولس، رسول المسيحية، حبيب المسيحيين عامة والأرثوذكسيين خاصة.

لكي تزور البطريرك اليوم، عليك أن تسلك الطريق نفسه الذي سلكه القدّيس بولس، فتشعر بثقل التاريخ حواليك. في القرن السادس، مباشرة قبل ظهور وانتشار الإسلام، كان في سورية ستمائة (٦٠٠) كاتدرائية. واحدة منها فقط، وهي كاتدرائية يوحنا المعمدان، ما زالت موجودة حتى الآن، بعد أن تحوّلت إلى المسجد الأمويّ الرائع. هكذا يجري التاريخ. الغالب يأخذ قلاع المغلوب، مستخدمًا إياها لأهدافه ورموزه. لم تكن الحرب بين البشر مختلفة عن تلك التي كانت تحصل بين آلهة الأولمب الإغريق في الأزمنة الغابرة (الكلاسيكية).

في البداية، وفي القرن العاشر قبل الميلاد، كانت هذه الكاتدرائية معبدًا للإله الآراميّ "حَدَد". "حدد" هو إله المطر والعواصف الذي كان المزارعون يعشقونه. في ظل الحكم الروماني، تحوّل إلى معبد جوبيتر. نحن طبعًا معنيّون به أكثر ككنيسة للقديس يوحنا المعمدان. عندما حرّم الامبراطور ثيودوسيوس الكبير عبادة الأوثان في العام ٣٧٩، وأعلن المسيحية ديانة الدولة الرومانية، تحوّل معبد جوبيتر إلى كاتدرائية مسيحية، وسُمّيت لاحقًا باسم القديس يوحنا المعمدان.

عندما استولى المسلمون على دمشق في العام ٦٣٥، جرت محاولات كثيرة لإقناع المسيحيّين بالتخلّي عن الكنيسة لمصلحة الحكّام الجدد. وعندما

باءت كلّ المساعي بالفشل، أخذها الخليفة الوليد بالقوّة. وتروي السِّيَر أنّ الخليفة كان أوّل المشاركين في تدمير كلّ ما يشير إلى المسيحيّة فيها.

حافظ المسلمون على مبنى الكاتدرائية الضخم، ولكنهم أدخلوا عليه تعديلات تعود إلى الفنّ الإسلامي والخطّ العربي، ليصبح هذا المكان مفخرة لسوريا المسلمة، والإسلام عمومًا. احترام الإسلام للتقليد النبويّ، حافظ على ضريح القديس يوحنا المعمدان وسط المسجد. ويقال إن هذا الضريح يحتوي على رأس يوحنا المعمدان المقطوع.

فيما حوّل المسلمون كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان إلى مسجد، سمحوا للمسيحيّين بالاحتفاظ بعدد من الكنائس، بعضها كاتدرائيات يفخر بها الأنطاكيون. في القرن السادس، كان المسيحيّون هم الأكثريّة في سوريا. وعندما زار البابا يوحنا بولس الثاني دمشق، في الخامس من أيار العام ٢٠٠١، استقبلته الحكومة السورية بلافِتات تقول للعالم أجمع: "أهلاً بكم في سوريا، مهد المسيحية". عندما حصلت هذه الزيارة البابوية، كان الشاب حبيب قد صار بطريركًا على أنطاكية وسائر المشرق، ووقف الرجلان جنبًا إلى جنب في الكاتدرائية البطريركية، كرمز للبحث الدائم عن الوحدة بين الشرق والغرب، هذه الوحدة الافتراضية التي يقال عنها الكثير ولا يُحَقّق منها إلا القليل.

مع الفتح العربيّ-الإسلامي في القرن السابع، تقلّصت المسيحية في سوريا، وهُجّر الكثير من المسيحيين، وهدّمت بعض كنائسهم أو استولي عليها. ولكن محردة قاومت فنجحت في المحافظة على هُوِيَّتِها كحصن للأرثوذكسيّة.

الحياة الثقافية والاجتماعية في محردة

بينما كان العالم يغلي سياسيًا، محدثًا تغييراتٍ مأساويّةً في المنطقة، كانت محردة، ما بعد الحرب العالمية الأولى، تنعم بسلام. محردة تلك، وهي ككلّ البلدات والمدن في سوريا ولبنان المُشْبَعة بالتاريخ، لم تحصل على الانتباه الذي تستحقه. مع أننا نعرف، من ماضيها واستنادًا إلى الأدلّة المعطاة من قِبَل علم الآثار، أنها كانت ذات أهمية خلال الحقبة البيزنطية.

تتألّق منطقة محردة بفسيفساء كنائسها، التي تذكّر بالكاتدرائيات العظمى التي أزدهرت في تلك المنطقة مع صعود الامبراطورية البيزنطية، وسقطت مع سقوطها. كان البطريرك مكاريوس الزعيم قد أشار إليها في كتابه "تاريخ البطاركة"، كمركز لمطرانية منطقتها. الكثير من مجد محردة وجوارها تهاوى في ظلّ الحكم العثماني (١٥١٦-١٩١٨). وقد أدّى الانهيار الاقتصادي إلى الهجرة الكثيفة من محردة باتجاه أميركا الجنوبية. عندما استقرّ المهاجرون في القارّة الجديدة، بدأوا يرسلون الأموال إلى أقربائهم في الوطن، ويسهمون في تطوّرهم.

كانت محردة تنتمي إلى الحياة الريفية التي تعكس إيقاع الطبيعة ودورتها الفصلية التي لا تتغيّر. يعيش الفلاحون حياة بسيطة، ويأكلون طعامًا بسيطًا، وهم متسلّحون بمعتقدات راسخة وبسيطة، فيحسّون بدفء الحياة الريفية وصدقها. هذه القرية الواقعة على بعد واحد من جبل العلويين ومدينة حمص وحماه، والذائعة الصيت في التاريخ، علِمت

بالتقدم الحاصل في سوريا بفضل الزيارات القصيرة لشبابها المقدامين والذين يعملون في الخارج. أشياء كثيرة كانت تحصل في حماه، المدينة القريبة، ولكن في محردة لم يكن أحد يعرف أيّ شيء عن الكهرباء وعن الهاتف، أو عن السيارات. الدراسة الابتدائية كانت ثمرة جهد شخصي في القراءة، والكتابة، والحساب. من وقت إلى آخر، كان أهل محردة يسمعون بالمعجزات، ليس الدينية منها فهي معروفة من قبلهم، ولكن تلك الناتجة عن ابتكارات عصر التكنولوجيا. عندما كانت تحلّق فوقهم طائرة، كانوا يحدّقون بها برهبة وخوف، ويضرعون إلى الله والسيدة العذراء. وعندما كانت تصل سيارة أحد الشخصيات الدمشقية إلى ساحة البلدة، كان جرس الكنيسة يُقرع لإخبار السكان بالحدث. كانوا يتجمّعون بإعجاب ويتدافعون من أجل النظر عن قرب إلى الآلة الجديدة.

تقع محردة وسط مزارع القطن. وكان آل هزيم يعملون في زراعة وتجميع القطن، وتحويله إلى خيوط، وحبال، وسجاد منسوج. لم تكتفِ الفتيات بالعمل مثل الرجال في حصاد القمح باليد والمنجل، بل كنّ أيضًا يبحثن في الحقول، بعد الحصاد، عمّا تبقّى من الحبوب من أجل التقاطها وإرسالها إلى المطحنة ليصير طحينًا.

كان المرء يتعلّم القليل، وكان ذلك يكفيه ليتدبّر أموره في حياة القرية اليومية. كانت القراءة مرتبطة بالقدّاس الإلهي. فكان التلاميذ يتعلّمون قراءة المزامير، وسفر أيوب، والأنبياء، ولأنه كان عليهم أن يشتركوا في القدّاس الإلهي، كانوا يقرأون ويحفظون.

العائلة

بما أنّ حبيبًا كان الولد البكر، فإنه كان يتمتّع بمكانةٍ مميّزة في هَرَميّة العائلة. كان الوالد يدعى طبعاً "أبو حبيب". الوالد أسعد وزوجته مريم شحادة رُزِقا بثمانية أولاد، هم حسب الترتيب الآتي: حبيب (البطريرك المستقبلي)؛ الفتاتان التوأمان آجيا وصوفيا، بطرس، سارة، يوسف، زكية، وندوى. باستثناء زكية التي تعيش مع عائلتها في الولايات المتّحدة الأميركية، كلّ من تبقّى من الإخوة والأخوات ما زالوا في محردة أو في جوارها. عمل بطرس في التجارة، بينما صار يوسف طبيب أسنان معروفًا، ومع الوقت نقل عيادته إلى بيروت. ربّى الوالدُ حبيبًا على أن يفخر بنفسه وبالاسم الذي يحمله. كان الابن معجبًا بأبيه. ولما كان الوالد يستطيع أن يقرأ ويكتب، أراد الابن إتقان القراءة والكتابة. كان الوالد معلّمًا، وكان عنده تلاميذ، فأراد الابن أن يكون معلّمًا وأن يكون عنده تلاميذ أيضًا.

كان والد ووالدة أسعد شخصين بسيطين. الوالدة لم تكن تقرأ وتكتب بل اكتفت بالاهتمام بعائلتها الكبيرة. ولكن الوالد كانت له طموحات، فتعلّم القراءة والكتابة. تعب أسعد كثيرًا من أجل أن يعلّم نفسه بنفسه، وليضع حبيبًا في مسيرة التعلّم الطويلة والشيّقة. ولما كان حبيبًا شغوفًا بالعلم، كان التحدّي بالنسبة إلى الوالد أسهل. ففيما كان الوالد يراقب ويعلّم، كانت الأم تصنع دفاتر من ورق، تشتريه من الدكان، وتجمعه على طريقتها، ثم تعطيه لحبيب وإخوته. كانت العائلة تساعد أيضًا في صنع الشموع لتستخدم في الكنيسة، فتمحورت حياتها حول الكنيسة وروزنامتها.

كان الوالد هو القدوة، وكان الجميع يدعونه "المعلّم أسعد". ولما كان حبيب فخورًا لكونه ابنَ المعلّم، أراد أن يكون مثله. فمنذ طفولته، كانت أحاسيسه مختلفة، وكذلك تصرّفاته. كان يشعر أن مسارًا مختلفًا سوف يميّزه عن الآخَرين. لهذا السبب، كانت علاقاته مع أترابه مختلفة. لم يكن يلعن أحدًا، لم يكن يتلفّظ بكلمات نابية، بل كان يركّز كلّ اهتمامه على الدراسة، وعلى الروابط التي تجمعه بالكنيسة. كان يتصرّف كمعلّم صغير وبجدية، وظلّ كذلك طوال حياته. احتلّت صفة "المعلّم" الصدارة في داخله، وكانت العائلة تعامله على هذا الأساس بطريقة مختلفة. فبينما كان الوالد، والوالدة، والإخوة، والأخوات، يعملون من أجل كسب لقمة العيش، كان الابن البكر يجهد في العلم ومساعدة والده في تعليم تلاميذه. كان يشعر بما لهذا التمييز من ثقل على ضميره. أما مدرسة "المعلّم أسعد"، فكانت مكوّنة من غرفة واحدة بالقرب من الكنيسة. كانت المدرسة والكنيسة هي كلّ ما يملكه الوالد. لم يكن يملك أرضًا، لذلك كان من سكّان محردة الأكثر فقرًا، ولكن كان محطّ احترام وتقدير الجميع للموقع الذي كان يحتلّه، ولِما كان يتمتّع به من خصال الاستقامة والنزاهة.

كان "المعلّم أسعد" هو المدرسة، عَمَليًّا. يعلّم القراءة والكتابة، والحساب، والمبادئ المسيحية، ويرتّل في الكنيسة، إذْ كان يعرف الألحان. كان المعلّم يَصهر المعرفة في شخصه، ويمثّل بالتالي كلّ شيء بالنسبة إلى عائلته. يعلّم في النهار، ويحيك السجّاد أو الملابس في الليل. لم يكن "المعلّم أسعد" يدرّس فقط، بل كان، أيضًا، يقرأ ويفسّر لباقي القرويّين الذين لم يكونوا يحسنون القراءة والكتابة في الرسائل الواردة اليهم من ذويهم. عندما كانت

الرسالة تحتوي بعض النقود، كانت تصبح مادّةً دسمةً للتداول بين القرويّين، وكانت تتحوّل بسرعة إلى جزء أساسيّ من حياة القرية.

كانت الفتيات يعملن في الحقول كأيادٍ مأجورة من أجل الحصاد اليدويّ بواسطة المنجل، إذ كُنّ يَجْمَعْنَ القمحَ الذي كان يشكّل أساسَ غذاءِ كلِّ القرية. كان الكلُّ يعملُ طوالَ النهار من أجل كسب رزقه. أما حبيب الجِدّيّ، فكان يدرسُ على نور الشمعة. وكانت الأم تجمع القضبان من أجل إضرام النار. كانت تخبز الخبز، وتطبخ الوجبة الوحيدة التي كانت تؤكل مساءً بحيث توضع في متناول الجميع. كان الوالد، والوالدة، والأولاد، يغمسون خبزهم في القِدْرِ ويأكلون. كان الخبز غذاء القرى الأساسي، وكان يضاف إليه شيءٌ يتغيّر مع الفصول. كان الخبز عند الفقراء مصنوعًا من الذرة أو الشعير وليس من القمح. وفي حال كانت الجبنة متوفرة، فتقطّع قطعًا صغيرة، وتُؤكل مع الكثير من الخبز. كانت القرى تأكل ما كانت الحقول تنتجه. لا استيراد، ولا تصدير. خلال موسم الباذنجان، كان الكلّ يأكل الباذنجان، خلال موسم البندورة، كان الكلّ يأكل البندورة مع البصل والخبز. أخذ القمح والشعير الكثير من الأشكال، وشكّلا الغذاء الأساسي. كذلك الأمر، بالنسبة للعنب والتين اللذين كانا يقدّمان للأكل بأشكال كثيرة، بما فيها الحلويات. كان آل هزيم ذَوِي إمكاناتٍ محدودة، لكنهم كانوا مكتفين بما لديهم. من أجل القليل الذي كانوا يحصلون عليه، كانوا يشكرون الله، ويتمسّكون بتعاليمه. كانت الأم تقوم بعملها كأم، وتحضّر بناتها الخمس للحياة. وتحضيرهنّ يعني، تقدير العمل الدؤوب، تهذيب النفس، والاستعداد لزواج ناجح. أمّا الأَخَوان بطرس ويوسف فقد عملا بكدّ مع والدهما من أجل إعالة العائلة.

كان المنزل الذي تسكنه العائلة غرفة واحدة مبنية من الطين، ولها باب واحد، وطاقة واحدة في الحائط. لم يكن هناك شبابيك، ولا مكان لكنبة، ولا لكرسيّ. فالمنزل كناية عن غرفة واحدة لكل الاستعمالات، مساحة واحدة، توضع فيها فُرُش تطوى في النهار، وفي المساء تبسط على الأرض ليفترشها الجميع.

الحياة اليومية في محردة

قرويّو "محردة" الذين يزيد عددهم اليوم عن ٢٠,٠٠٠ نسمة، فخورون بقريتهم، بتاريخها، وبإيمانها. فالكنيسة الصغيرة والمتواضعة، التي كانت ولا تزال تشغل مكانةً محوريّةً في حياتهم، موجودة بالقرب من منزل عائلة المعلم "اسعد". لكنْ ما إنْ تدخلها حتى تُفصِحَ لك عن مجدها البيزنطيّ القديم. كل شيء فيها يذكّرك بذلك الماضي الامبراطوري المجيد: عَمودٌ ضَخْمٌ، رُومانيُّ التصميم، يحمل السّقف، جرن أو حجَرٌ صغير في كلّ زاوية من زواياها. أما باب الكنيسة الرئيسيّ، فمصنوع، اليومَ، من الخشب. قديمًا، كان الباب حجريًا، وهو موجود حتى الآن إلى جانب الباب الخشبي، لا يمكن تحريكه لثقل وزنه. ذكرى للأيام المجيدة، زمن كان فيه "الرجال رجالا".

عاش المسيحيون وسط المسلمين، فتأثّروا ببعض عاداتهم، كتخصيص باب للرجال وباب للنساء في الكنائس. هذا لا يعني أنَّ ليس هناك تمييزًا ضمنيًا بين الرجال والنساء في المسيحية. كان الناس يرتدون ملابس بسيطة، تكون

عادة سوداء، وكان الثوب يغطي الجسم كلّه. كانت النساء يُغَطّين رؤوسَهُنّ. أما الطريقة التي كان يُربط بها الوشاح، فكانت تدلّ على الوضع الاجتماعي للمرأة، متزوّجة أو عزباء.

الوضع الآن تغيّر، إذْ توجد ثلاث كنائس والرابعة تبرّع ببنائها صاحب الغبطة نفسه، وهي كاتدرائية مهمّة وجميلة جدًا، قد يبدأ استخدامها في صيف ٢٠١٠.

نادراً ما كان القرويّون يغامرون بالخروج من محردة. وعندما يفعلون، كانوا يذهبون في مناسبة عيد رفع الصليب إلى دير مار جرجس الحميرا في وادي النصارى بالقرب من حمص. كانوا يمشون حوالي خمسين كيلومترًا، والمحظوظ من بينهم كان يمتطي حمارًا أو بغلاً. والجدير بالذكر أنه كان محرّمًا على المسيحيّين، في الحقبة العثمانية، اقتناء الأحصنة؛ لأنها رمزٌ للقوّة إذْ إنها حيوانات تستخدم في الحروب.

كان في القرية دكّان صغير، هو نقطة للقاء القرويّين. لم يكن هناك طبيب، ولا ممرّضة. لكن بعض الجُرَآءِ من الرجال، لاسيما الحلاّقون منهم، كانوا يصِفون الأعشاب كدواء لكلّ أنواع الأمراض، وبعض النساء يعملن كقابلات قانونيات بالفطرة. إذا احتاج المرء لعناية طبية، كان عليه التوجه إلى حلاّق القرية. وتحَضر إلى ذاكرة الطفل ذكريات مرعبة، إذْ شهد، ذات مرّة، عملية اقتلاع ضرس بواسطة كمّاشة يستعملها عادة النجارون.

من الصعب القول إن كان في محردة، في ذلك الحين، أيُّ علامة تشير إلى انتمائها إلى الدولة السورية. بدأ حضور الدولة يظهر تدريجيًا، وبطريقة غير

مباشرة من خلال ظهور رجال الشرطة (قوى الأمن الداخلي). وكان هؤلاء يُذهلون الأهالي بركوبهم الخيل، وبارتدائهم الثياب الملوّنة، فيزرعون الخوف في نفوسهم، وقد أَعطَوا منذ البداية، صورةً سلبيّةً وسُلْطَويّةً للدولة.

كانت محردة تابعة رعائيًا لمطرانية حماه. أما مطرانها، فكان يعيش في حماه التي تبعد ٢٥ كيلومترًا عن محردة، وكان يأتي إلى محردة مرّات قليلة من أجل جمع "النورية"، أو لإقامة قدّاس في القرية. كان في القرية ثلاثة كهنة، واحد لكلّ حيّ. وبما أنّ كلّ الناس كانوا يذهبون إلى الكنيسة، ويتلون الصلوات عن ظهر قلب، كان سهلاً على المطران أن ينتقي أيّ شخص من بينهم ويرسمه كاهنًا.

في الحقيقة، كانت المسافة التي تفصل بين العلماني والكاهن صغيرة جدّاً، بحيث إنّ الانتقال من الحالة الأولى إلى الثانية كان سهلاً للغاية. كانت الكنيسة محور حياة القرويين، والمكان الذي ينصهر فيه الجميع. بدأت الفروق تظهر لاحقًا، عندما تراجعت الثقافة القروية أمام زخرفة الحضارة. غير أن أهل محردة نِشاطٌ، ويعملون بكَدٍّ، وما إنْ أُعطَوا فرصة التحرّك، حتى وجدتهم يدرسون في دمشق وغيرها من المدن التي فيها جامعات أو فروع لجامعات، بالإضافة إلى الذين سافروا إلى الخارج ليعودوا بشهادات عليا.

وعندما بدأت قرية محردة تزدهر؛ بسبب الحوالات المالية التي كانت تصل إليها من المهاجرين في أميركا اللاتينية، قام أهلها بشراء الأراضي، فبنَوا بيوتًا فخمة، وشيّدوا كنائس.

كأرثوذكسيين أنطاكيّين، حافظ أهل محردة على التراث الأنطاكي وعلى المسيحيّة الأصيلة لأنطاكية التاريخيّة.

مِن محـردَة إلى بـيروُت

في صباه، عمل حبيب في دكّان في محردة بطريقة غير منتظمة ولمدّة أربع سنوات. ولكي يستطيع حبيب متابعة دراسته خارج محردة، طلب والده مساعدة مطران حماه، إغناطيوس حريكه. كان المطران يعرف حبيبًا جيّدًا، إذْ شاهده يرتّل في قداديس كان يرئسها، فأرسله إلى مطران بيروت، المدينة التي كانت حينذاك مركزًا للتعلّم، بفضل الدور الذي لعبته الإرساليّات الأجنبيّة.

في سِنِّ الخامسةَ عشرةَ (١٩٣٥)، ترك الشابّ حبيب، وللمرّة الأولى، محردة وحده. استقلّ سيارةً للذهاب إلى حمص، وهناكّ تَوَجَّهَ إلى موقفٍ للسيّارات وطلب السفر إلى بيروت. كان الجواب بالنفي، وقالوا له نستطيع إيصالك إلى طرابلس، وعندنا شاحنة على وشك المغادرة.

استقل الصبيّ الشاحنة من دون تردد، ووصل إلى طرابلس ليلاً. وهناك، طلب الذهاب إلى بيروت، فقيل له إنّ شاحنةً محمّلة بالأثاث ستغادر فورًا إلى بيروت، فاستقلّها ووصل إلى منطقة في بيروت لم تكن تتّسم بالسمعة الطيّبة.

هناك، أمضى ليلته في فندقٍ مُتَواضِعٍ. لكنه كان سعيدًا بالمغادرة والبحث

عن مطرانيّة بيروت، ومطرانها المعروف، المتروبوليت إيليا الصليبي. من أجل لقائه مع المطران، ارتدى حبيب أفضل ما عنده من ملابس، ثوبًا خاطته له أمُّه. نظر المطران إلى الشابّ وقال "أنت تأتي لزيارتي لابسًا ثوبًا للنوم!". "كلاّ، سيّدنا، هذا ثوب أنيق، خاطته لي أمي، وهو أفضل ما نلبسه في محردة"، أجابه البطريرك المستقبليّ. ولكن المطران ردّ عليه بالقول: "اخلعه في الحال. فمن الآن وصاعدًا، سوف ترتدي الغمباز". بأسف شديد، وجد الشابُّ نفسَه في مدرسة "الثلاثة الأقمار" وهو الوحيد الذي يرتدي الغمباز، والوحيد الذي لا يتكلّم الفرنسية.

من مدرسة "الثلاثة الأقمار"، أُرسل إلى الإنترناشونال كولدج(IC)، وهي ثانويّة في رأس بيروت تُعِدّ تلامذتها لدخول الجامعة الأميركيّة في بيروت. في الإنترناشونال كولدج، تميّز حبيب، وكان اسمُه دائمًا على لائحة الشرف. في هذه الأثناء، بدأ بارتداء ملابس الرهبان، ومرّةً أُخرى كان الوحيد الذي يرتديها في المدرسة. في تلك المرحلة، رُسم شماسًا في العام ١٩٤١.

في الإنترناشونال كولدج، كان غفرائيل الصليبي، الذي صار لاحقًا المطران غفرائيل، وهو أوّل مطران أرثوذكسيّ أنطاكيّ في أوروبا الغربية، وغسان تويني صديقيه. وكان غسان صديقه الأقرب في الإنترناشونال كولدج، ومن ثَمّ في الجامعة الأميركيّة، وقد استمرّت الروابط التي جمعتهما في المدرسة والجامعة حتى الآن.

في الإنترناشونال كولدج وفي الجامعة الأميركيّة، برز حبيب؛ لأنّه كان الطالب الوحيد الذي يرتدي لباسًا إكليريكيًا. مرّةً جديدة، استمتع بفرادته،

واستغلّها لمصلحته. عندما كان الطلاّب يقفون في الصف ليتسجّلوا، لم يكن يشعر بالحرج في أن يتقدّم الصفوف ليتسجّل، فما كان عليه إلاّ أن يتقدّم، وكان الجميع يفسح المجال للشابّ بالثوب الأسود. إحساسه بتميّزه كان جزءًا من شخصيّته، وعلى أساسه بنى علاقته بالآخرين. إذْ ما يليق بالرجل ذي اللباس الأسود كان ينفذ إلى كيانه كلّه.

في العام ١٩٤٣، عندما التحق حبيب بالجامعة الأميركيّة، كان قد أصبح شمّاسًا، عضوًا في الهيئة الإكليريكيّة بكلّ ما للكلمة من معنى. وعلى الرغم من أنه كان محبًّا للرياضيّات بشكل خاص، اختار الالتحاق بكلّية الآداب التي كانت تشدّد على الفلسفة والتربية. وفّرت له الجامعة مناخًا من حريّة الفكر، فتابع علومه بتصميم. صارت المعرفةُ هاجسَه. كان لامعًا لدرجة أنّه حصل على مِنَح تعليميّة خوّلَتْه أن يتابع تحصيله العلمي مجانًا طوال مدة دراسته، وأصبح الطالبَ المفضّل لدى رئيس الجامعة البروتستانتيّ، بَيارد دودج، المتحدّر من عائلة دودج التي كانت ناشطةً في أعمال الإرساليّات، وفي تأسيس المدارس، والتي أنشأت أخيرًا جامعة. وعندما سألته "هل حاول دودج أن يقنعك بالبروتستنتية؟"، أجابني "لا، وأنا أيضًا لم أحاول إقناعه بالأرثوذكسيّة!" كان هناك، من جانبه، يقين مع قليل من روح الدعابة.

سنوات الجامعة الأميركيّة ١٩٤٣-١٩٤٥ كانت سنوات حاسمة في الحرب الكونية الثانية. الحركات السياسية التي نشأت في العشرينيات والثلاثينيات، كانت في أَوْجِها: الشيوعيّة التي التزمها الاتّحاد السوفياتيّ المعارض للتدخُّلِ الغربيِّ في شؤون الشرق الأوسط؛ اشتراكية ماركس وإنجلز، وأخرى ترعرعت في كنف التفسير الجديد للفكر الإسلاميّ والعربيّ؛ قوميّون من

ألوان مختلفة، منهم الحزبُ السوري القوميّ الاجتماعي الذي كان يعمل من أجل سوريا الكبرى - الهلال الخصيب - الذي كان يُراد تحريره وتوحيده في أُمّةٍ واحدة، ومنهم القوميّون العرب الذين كانوا يحلمون بأمّةٍ عربيّةٍ مكوّنة من كلّ الشعوب الناطقة بالضاد، من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق. وبشكل أكثر إلحاحًا، هناك الحركة الصهيونية التي كانت تجهد من أجل إنشاء دولة يهوديّةٍ في فلسطين. كان الصهاينة، وهم طلاّبٌ يهودٌ أتَوا من فلسطين إلى الجامعة الأميركيّة، وكانوا مجنّدين في المنظّمات السرّية التي كانت تحضّر للصراع مع الانتداب البريطانيّ من أجل تحويل "الأرض" التي وُعدوا بها إلى "دولة" بكلّ ما للكلمة من معنى. وكان لكلّ هذه الحركات مناصرون وأعداء في الجامعة الأميركيّة: طلاّبٌ يؤيّدون الحلفاء، وطلاّبٌ آخَرون يؤيّدون النازيّين. وكانوا لا يتوقّفون عن الجدال في حَرَم الجامعة، وفي المقاهي المجاورة. حتى أنهم كانوا، في بعض الأحيان، يتشابكون بالأيدي ويتراشقون بالحجارة أيضًا، الأمر الّذي أدّى، أحيانًا، إلى توقيفهم. في خضمّ هذه الصراعات، كان شمّاسنا الشاب شديد الانهماك بمتابعة دروسه وخدمة الكنيسة، وهذا ما أغناه عن الانضمام إلى أي من هذه الحركات، على الرغم من أنه كان يميل إلى اليقظة العربية لالتزامها القضايا المحقّة، ووقوفها ضد التدخلات السياسية الأجنبية في المنطقة، ولاسيما في فلسطين.

الحياة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، تعني الحياة في رأس بيروت. منذ إنشاء الجامعة في العام ١٨٦٥، تطوّرت رأس بيروت لتصبح مركزًا ذا طابع عالميّ. كانت الفنادق، والمطاعم، والمقاهي تستقطب المفكّرين من كلّ

أنحاء العالم العربيّ. الحرّيّة التي تمتّعت بها بيروت في ذلك الحين، جعلت منها ملاذًا لِكُلِّ المَنفيّين من الأنظمة العربيّة التقليديّة، المحافظة والسُلطويّة. ولكن، رأس بيروت كانت أيضًا مكانًا لحوار الديانات. لم يكتف البروتستانت بإنشاء جامعة، بل أسّسوا معهدًا للدراسات المسيحيّة، وتشكّلت عندهم حركاتٌ شبابيّةٌ، ومجموعاتٌ للدّراسات المسيحيّة. أنشأت الحركة البريطانيّة في رأس بيروت مكتبًا للمجلس الثقافيّ البريطانيّ، وَنُزُلاً بريطانية تستقطب طلاّب الجامعة الأميركيّة. كان النزل مؤلّفًا من غرف للسكن، ومكتبة، وقاعة للقراءة، وقاعة للحفلات الموسيقيّة.

إن كان هنالك من مكان في الشرق الأوسط تتّصف به العلاقات بين المسلمين والمسيحيّين بأعلى مستويات الرّقي، فهذا المكان هو رأس بيروت. أذكر هذا الموضوع لأن شمّاسنا نشط في هذه المنظمات. كان عضواً فعّالاً في مجموعةٍ بروتستانتيّةٍ للحوار، ومطالبًا بالحوار مع منظّماتٍ كاثوليكيّة والتعاون معها. كما أنه وجد نفسه وسط نقاشات حادّة حول أمور قوميّة، ولكنّه كان دائمًا يلتزم وجهةَ نظرٍ فكريّةً مستقلّة.

ساعده هذا الجوُّ الكوزموبوليتي في إغناء خبرته، وتمكّنه من اللغتين الفرنسية والإنكليزية، وأهّله للمشاركة الفعليّة في المؤسّسات الكنسيّة العالميّة. نشط في مرحلة مبكرة جدًا في المجلس العالميّ للكنائس، فكان على علم بالاجتماعات التي كانت تُعقد في جنيف بسويسرا، بين اللاهوتيّين الأرثوذكس والبروتستانت في أواخِر الأربعينيات. من جانبهم، كان الأرثوذكس ناشطين في معهد القديس سرجيوس في باريس، وكانوا رياديّين

في هذه اللقاءات التي فتحت الباب واسعًا أمام حوار مستقبليّ مسيحيّ-مسيحيّ. شعر الشمّاس أنّ الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تعتبر نفسها هي "الكنيسة"، بعيدةٌ قليلاً عن هذه الأجواء، إذْ كانت تبدي رغبةً بالحوار من دون أي التزام فعلي به.

كأرثوذكسيٍّ في رأس بيروت، كان الشمّاس يتوقُ للقاءِ البروتستانت الذين يتحدّرون من أصولٍ أرثوذكسيّة. كان يريد أن يعرف الأسباب التي دفعتهم إلى تغيير مذهبهم. هل هي دينيّة؟ أو اقتصاديّة؟ أو الرغبة في التحصيل العلمي؟ كان لديه شعور عميق بأن الأرثوذكسيّةَ غنيّةٌ بما فيه الكفاية لتستجيب لحاجات كلّ شبابها المتعلّم. قادته هذه التساؤلات إلى إعادة نظر دقيقة بالكنيسة الأرثوذكسيّة كمؤسّسةٍ، كشعب، وكالتزام. هنا تكمن جذور "حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة"، المسمّاةِ اليوم اختصارًا بالـ"حركة". وإنْ لاقت هذه الحركةُ زخمًا داعمًا من الخارج، فهذا الدعم أتى من بعض اللاهوتيين الروس الذين هربوا من الاتحّاد السوفياتيّ، وعملوا على إحياء الأرثوذكسية في معهد القديس سرجيوس الذي أسّسوه في باريس.

كانت الجامعة الأميركية في بيروت في الأربعينيات حلبةَ صراع للأفكار السياسيّة والإيديولوجيّات التي كانت قلّةٌ منها قابلةً للتحقيق. وكلّمًا كانت العقيدة أكثرَ جُرأةً، كانت أكثرَ تَشويقًا. لم يكن الشمّاس مؤمنًا بهذه العقائد، إذْ كان يرى نفسه طالبًا وحيدًا من محردة، عليه أن يعمل بِجِدٍّ من أجل تحقيق طموحاته في مجال الدراسة، وطموحات أهله الذين كانوا يتابعون إنجازاته يومًا بعد يوم. تعمّق في الفلسفة، والمنطق، والتاريخ كي يؤهّل نفسه

للدراسات العليا في اللاهوت. كانت أمور الدنيا تمرّ به، وهو غير مبالٍ؛ لأنّ ما كان يبحث عنه هو معاني الأشياء بعيدًا عن المظاهر. وربما كان يبحث عن دَور المُرَبّي في كَنَفِ الكنيسة، وعن خطوة في المسار الخاص بالمعلّم.

تابع الشماس حياته في المطرانية، وخدم في الكنيسة، وتحمّل بصبرٍ القواعدَ الصارمة التي فرضها عليه المطران. كان النظام والانضباط لمصلحته. قرأ كثيرًا، وعاش حياةً روحيّةً غنيّة، وتمتّع بذلك. أحبَّ المطرانُ إيليا الصليبي الشمّاسَ ولاحظ فرادته. شجّعه على دراسة الموسيقى الكنسيّةِ والتّرتيلِ الصحيح. وعندما حصل على الإجازة الجامعيّةِ في العام ١٩٤٥، درّس في ثانوية "الثلاثة الأقمار"، حيث درس لسنة أو سنتين سابقًا. ولكنه لم يكن مرتاحًا. كان يريد أن يتابع علومه، ويدرس اللاهوت. كان هناك، بالنسبة إلى الأرثوذكس، معهدُ لاهوتٍ عظيمٌ في باريس. إنّه معهد القديس سرجيوس الذي أنشأه الرهبان "الروس البيض"، وقد تحوّل، فيما بعد، إلى حصن للأرثوذكسيّة، يلوذ إليه أهَم اللاهوتيين الروس في ذلك الوقت.

الفصل الثالث

باريس ودور معهد القدّيس سرجيوس في حياته

بعد أن أنهى الشمّاس دراسته بتفوّق في الجامعة الأميركية، أرسله المطران إيليا (الصليبي) إلى معهد القديس سرجيوس، وخصّص له مائة / ١٠٠ / ليرة لبنانية في الشهر لمصروفه ومعيشته هناك. حتى بالنسبة إلى شمّاس حريص ومتصوّف، كان هذا المبلغ يكادُ لا يكفي لتلبية حاجاته الضرورية. ولكونه ميّالاً لحياة متوحّدة ملؤها الدراسة والصلاة، كان لا يعرف إلاّ القليل عن باريس الصاخبة، ولا يبدي اهتمامًا كبيرًا بما يجده الآخرون في عاصمة فرنسا الأنيقة، أو حتى في أوروبا. الحرص الذي ميّز الشمّاس في بيروت، ميّزه أيضًا في باريس. فقد توصّل إلى تدبّر أمر معيشته بالمِنْحة الزهيدة التي كان قدرها مائة / ١٠٠ / ليرة لبنانية، وبالمبلغ الصغير الذي استطاع توفيره خلال فترة تدريسه في ثانوية "الثلاثة الاقمار".

بمساعدة أساتذته الروس، وجد غرفة متواضعة في بيت متواضع، في حيّ متواضع. كان المنزل مِلكًا لامرأة عجوز بحاجة إلى المساعدة. فما كان من الشمّاس إلاّ أن اهتم بالواجبات المنزليّة، وهذا ما خفّض من قيمة الإيجار. كانت غرفتُه مُدَفّأةً بموقدٍ قديم، وفيها كنبة تستعمل كسرير، وكرسي، ومكتب. ولكي يزيد الشمّاس مدخولَه، دَرَّس اللغة العربيّةَ في السوربون.

كان المعهد يسهّل الحياة لطلاّبه، فاستطاع الشمّاس الانتقال إلى العيش على طريقته، والتركيز على المجالات التي تهمّه. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ قراءاتِه الواسعة، بالإضافة إلى المعلومات الفلسفيّة التي اكتسبها في الجامعة الأميركية، جعلته يتقدّم بسرعة أكثر من سرعة زملائه. كان البرنامج في المعهد يتضمّن، على سبيل المثال لا الحصر، العهد القديم والعهد الجديد، وسيرة الآباء الأوائل، والعقيدة الكنسيّة، والقانون الكنسيّ، وتاريخ الكنيسة، والأرثوذكسيّة والعمارة، وعمارة الكنائس الروسيّة، والأرثوذكسيّة والفنّ، والأرثوذكسيّة والأدب.

مَعهَد القدّيس سرجيُوس

كان معهد القديس سرجيوس روسيًّا صِرْفًا. كان فقيرًا ماديًّا، وغنيًّا روحيًّا. لم تكن للمعهد علاقات مع اليونان. كان المطران إيليا يسمّي معهد القديس سرجيوس "التخشيبة"، مبالغَةً مِنه في وَصفِ الوضع المتداعي لأَبنِيَتِه.

أسّس معهدَ القدّيسِ سرجيوس اللاهوتي في باريس، الروسُ البيض الفارون من النظام الماركسيّ-اللينينيّ الذي كان يتحكّم بروسيا. بدأ اللاجئون الروس الهاربون من النظام السوفياتيّ يتوافدون إلى باريس، منذ العام ١٩٢٠. في العام ١٩٢٢، أبعد لينين كبار اللاهوتيّين الأرثوذكس، الذين وجدوا في باريس ملاذًا وأرضًا خصبة لنشاطهم. من بين الملايين الذين هربوا من النظام الماركسيّ، قدِم مئاتُ الآلاف إلى باريس، وكانوا بغالبيّتهم يتقنون الفرنسيّة. في العام ١٩٢٥، اشترى المَنْفِيّون بعض المباني الصغيرة والقديمة، وأسّسوا معهد القدّيس سرجيوس. أُنشِئ المعهد على غرار

الأكاديميّات الأرثوذكسيّة الأربع في روسيا القيصريّة، في سانت بطرسبرج، وموسكو، وكييف، وقازان. كان العميد الأوّل للمعهد، الأب سرجيوس بولغاكوف، شخصًا يتمتّع بخلقيّةٍ مميّزة. في شبابه كان ماركسيًّا ملحدًا، ولكن بعد ثورة السنة ١٩٠٥، اهتدى إلى الكنيسة وصار كاهنًا. كان هدف المعهد إعداد قادة للكنيسة الأرثوذكسيّة، وترسيخ إيمان العلمانيّين. من أجل مساعدة المهاجرين الروس، وضعت الحكومة الفرنسية مبنى قديمًا بتصرّفهم. ضَمَّ المعهدُ حوالي اثنَي عَشَرَ مُفَكِّرًا روسيًّا أرثوذكسيًّا في مجالات اللاهوت، والفلسفة، والأدب، والاقتصاد. وكان اللاهوتيّون الروس، لاهوتيّين خُلَّصًا، همّهم الوحيد هو انتشالُ الأرثوذكسيّةِ من براثن الشيوعيّةِ المُلْحِدة. مارس هؤلاء تأثيرًا كبيرًا على أوروبا، ولفتوا إليهم انتباه الكنيسة الكاثوليكيّةِ التي أُعجِبَتْ بروحانيّتِهم، وتواضُعِهم. فأحدثوا تغييرًا كبيرًا في نظرة الكاثوليك إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة التي كانت تُعتَبَر، سابقًا، كنيسة منشقّة، ومؤسَّسة غير مهمة بذاتها. وللتشديد على الجانب الروحانيّ للمعهد، اتّبع الأساتذة والطلاب حياة نسك بسيطة، يقومون بأعمال الخدمة بأنفسهم. ومباشرة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، بدأ المعهد بمنح شهادات دكتوراه.

ترك معهد القديس سرجيوس وباريس التي حضنته، آثارًا دامغة في عقل الشمّاس وروحه.

باريس كقطبٍ ثقافيّ

منذ بداية الإصلاحات العثمانيّة في الثمانينيات، كانت باريس المقصد الأول للأجيال الجديدة في اسطنبول، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، وبغداد.

فأصبحت مكّةَ المتعلّمين، والإصلاحيّين، والثوريّين، وكذلك بالنسبة إلى اللاّهوتيّين ذَوِي الميول الفلسفيّة.

كانت باريس منبعَ الأفكار الجديدة التي هزّت منطقتنا. فكتابات الفلاسفة الفرنسيّين، وواضعو الموسوعة الفرنسيّة، وأعمالُ الفنّانين الفرنسيّين، ونتاجُ الأدباء والشعراء، جَذَبَتْ كُلَّ الإصلاحيّين في بلادنا والعالم، الذين تغنّوا بباريس كنموذج للإصلاح على نقيض أنظمة العثمانيّين والبلدان الشرقية.

لم تكن اهتمامات الشمّاس بعيدةً عن المفكّرين الأوروبيّين. أخذ عنهم ما يتناسب وميوله الروحانيّة الطبيعيّة. قرأ الفكر الكاثوليكيّ كما كتبه جاك ماريتان، وبيار تِيار دو شاردان، والوجوديّون المسيحيّون الأوروبيّون. وجد العُمقَ الفلسفيَّ في كتابات ماريتان. فبالنسبة إلى هذا الأخير، ما يدركه العقل مطابق لِما هو موجود. لم يكن ماريتان يجد أيَّ تناقض بين الإيمان والعقل، فأعاد إحياء القديس توما الأكويني من القرون الوسطى، وأغنى تعاليمه من خلال قبوله بقانون طبيعيٍّ واحد يَحكُمُ كُلَّ البشر. أما دو شاردان، اليسوعي المتمرّد، فتبنّى متحدّيًا العلم والمنهج العلميّ، وقَبِل بالتطوُّرِ كطريقٍ إلى إدراك أعماق للّه. في الخمسينيات، لم يكن دو شاردان معروفًا في باريس فقط، بل كان أيضًا محبوبًا في بيروت، حيث كان الأدباءُ الجُدُدُ يبحثون عن الروحانيّات في سياق المبادئ العلميّةِ الجديدة.

التّفاعُل مع الأفكار الجديدة

من محردة الأرثوذكسيّة، من والده ووالدته، ومن الكهنة البُسطاء فيها،

استمدّ الشمّاس تعليمَهُ الأرثوذكسيَّ الرُّوحانيّ. من معهد القدّيس سرجيوس، من باريس، من الفلاسفة-اللاهوتيّين الأوروبيّين، تزوّد الشمّاسُ بثقافةٍ واسعة، وعمّقَ نظرتَهُ في الله، في الإنسان، في المجتمع، والثقافة.

في الواقع، تفاعَل الشمّاسُ مع الأفكار الرئيسية التي هزّت أوروبا في القرن الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين. كان العصر العِلميّ يتحدّى المؤسّسات القديمة، مُجبِرًا إيّاها على التحرّك والتزام المسار الجديد ولو على أرضيّةٍ قديمة. في روسيا، كان بوشكين، غوغول، ودوستويفسكي يقودون نهضةً سلافِيَّةً أرثوذكسيّة، رُوحانيّة. وفي ألمانيا، وُضع في التحدّي الأكبر كلٌّ من: نيتشه، وهيجل، وشليجل. في الدنمارك، كتب سورين كيركيغارد، الكتاب الشهير "إمّا، أو". بالنسبة إلى هؤلاء المفكّرين، الكونُ متناقضٌ في الأساس. كي تفهمه عليك، كما قال كيركيغارد، أن تقوم "بقفزةٍ إيمانيّة"، وأن تلتزم بِخِيارِك. وأفضل الطرائق لفهم الله هي طريق خليقتِه، إذ بواسطته نلتقيه. كي يكون المرءُ صادقًا مع نفسه، عليه أن يأخذ قرارًا ويحيا بِمُوجِبِه. كان الاختيارُ سهلاً بالنسبة إلى الشمّاس الذي كان يدرس في باريس، برعاية اللاهوتيّين الروس، ويشاطرُ هواجسَ الوجوديّةِ المسيحيّة التي كانت تتسرّب إلى الفكر الأوروبيّ.

كان الوجوديّون على نوعَين: الماديّين منهم والمؤمنين. نيتشه، صاحب كتاب "هكذا تكلّم زرادشت"، وجان بول سارتر، فيلسوف "اللاشيئية"، نظرا إلى العالم من منطلق اليأس. أما المؤمنون أمثال: مارتين بوبر، وبول تيليخ، وكارل بارت، ورودولف بولتمان، وراينهولد نيبور، ونيكولاي برديايف، وكارل ياسبرس، وغابريال مارسيل، وميغال دو أونامونو، فكانوا ينظرون إلى

العالم من منطلق العَجب. كان هدف الوجوديّين المسيحيّين روحانيًّا، وكانوا ينادون بالخِيار الرُّوحِيّ الشخصيّ، من خلال الحرّيّة المسؤولة. الخِيارُ هو أن يُعاشَ هذا الإيمانُ ويُؤكَّدَ على الرّغم من الغموضِ والتناقضِ اللذَين يميّزان وجودنا.

اندمجت عقلانيّة الوجوديّين، وروحانيّة الأساتذة الروس، لتَصُوغَ فكر الشمّاس. ما تعلّمه منهم ذكّره بما تعلّمه في بلدته القديمة المتواضعة. هناك، تذكّر المسيحيّة الأُولى، المسيحيّةَ الشرقيّة، كديانةٍ مرتكزةٍ على الإيمان، والتواضع، والمحبة، والتسامُح تجاهَ الآخَر. هذه المبادئ صارت حَجَرَ الزاويةِ في نظرتِه الفلسفيّة-اللاهوتيّة. تذكّر نفسَه وهو يستمع إلى والدِه الذي كان يعلّم أن المسيح كان رسولاً للفقير واليائس، أنّه كان معلّمًا يعلّم الشعب من خلال أمثالٍ مألوفةٍ بالنسبة إليهم.

أما بالنسبة إلى تيليخ وبارت، فيَجِبُ أَنْ يُفهَمَ العهدُ القديمُ مِن خلال العهدِ الجديد، لا العكس. المسيح هو الطريق إلى الله. والكتاب المقدّس يجب أن يُقرأ من خلال اهتمام المسيحيّ بالله الحيّ. فكّر شمّاسُنا مَلِيًّا بكل هذه التعاليم، واعتنقَها. صحيحٌ أنّه تشرَّبَ الفكرَ الأوروبيّ، إلاّ أنّ ذلكَ لَمْ يَمنَعْهُ مِنِ امتلاكِ أفكارٍ خاصَّةٍ به.

في معرضِ دراستِنا لوَقْعِ الوجوديّةِ المسيحيّةِ على الشمّاس، علينا ألاّ ننسى تأثير غابريال مارسيل، صاحب كتاب "سرُّ الكَينُونة، والخَلْفِيَّةُ الوجوديّةُ للكرامة الإنسانيّة". إذْ باتَتِ المبادئُ الأساسِيَّةُ الّتي شكّلَتِ الفِكرَ الدِّينِيَّ لشَمّاسِنا هي : سِرَّ الكَينُونَة، ومُعجِزَةَ الوجود، وشخصَ المسيح.

في سان سرجيوس، كان على الشمّاس أن يتعلّم اللغة اليونانيّة كي يستوفيَ متطلّباتِ بعضِ الموادّ. وبما أنّ موضوعَ أطروحتِه كان "الخلاص في لاهوت القديس أثناسيوس"، استند إلى مراجع في فرنسا وبريطانيا، وكان يمضي شهرَين من الصيف في بريطانيا، يتردّد خلالها على جامعة أوكسفورد، حيث طوّر علاقاتٍ مع لاهوتيّين أنجليكان.

مع أنّه كان يحملُ إجازةً في الفلسفة من الجامعة الأميركية، إلاّ أنّه أحس بالحاجة إلى أن يعمّقَ دراساتِه في الفلسفة، والتاريخ، واللاهوت. كانت الإجازةُ الجامعيّةُ في اللاهوت الأرثوذكسيّ تتطلّبُ أربعَ سنواتٍ من الدراسة في معهد القديس سرجيوس.

عندما يستذكر أيّامَهُ في باريس، جُلُّ ما يؤثّرُ فيه، هو تقوى أساتذتِه الروس، وبساطتُهم، وحياتُهم المتواضعةُ في مساكنهم. ما كان ينقص المعهدَ مِن ناحيةِ الرَّخاءِ المادّيّ، كان يُعَوَّضُ عنه بالغنى الفكريّ. هناك تفاعلَ شمّاسُنا مع الكاثوليك، والبروتستانت، والأرثوذكس، والمُلْحِدِين، واستخرَجَ خلاصاتٍ خاصّة به. اكتشف الآخَرَ كما هو، أو بالأحرى كما يرى الآخرُ نفسَه، وقدّر حقَّ التقديرِ تنوُّعَ الجنس البَشَريّ. إذا كان الناس مختلفين، إذا كان إيمانُهم مختلفًا، فتلك مشيئة الله. قال لنفسه "الآن أعرفُ أنّ الله خلقَني، لكنّه خلقَ الآخَرين أيضًا". كان هذا أساسيًّا بالنسبة إليه. من هنا كان مِنَ المنطقيّ أن تَشْهَدَهُ في باريس يقود الحِواراتِ مع الكاثوليك والبروتستانت والملحدين.

ما خلا كتابات بوبر، لم يتعمّق الشمّاسُ كثيرًا بالفكر اليهوديّ المعاصر. إنَّ

تركيزه الكبير على السيد المسيح والأناجيل، أبقى العهدَ القديمَ في المَرتَبَةِ الثّانيةِ من اهتماماته. دَخَلَ إلى عالَمِ العهدِ القديم من خلال السيّدِ المسيح، وهذا ما شكّلَ كلَّ الفَرْق في نظرته هوَ الى العهد القديم. وعندما سألتُ البطريرك عن العهد القديم، تكلّم بروحيّةِ أساتذتِهِ الرُّوس. كان اهتمامُه الأَوَّلُ يرتكز على إيمانه بأنَّ الله يَسُودُ على الزمان والمكان، وعلى كُلِّ الأحداثِ المرتبطةِ بالجنسِ البَشَريّ. الأَهَمُّ بالنسبة إلى الكتاب المقدس، هُوَ كَيفِيَّةُ قِراءَتِه، بل كَيفِيَّةُ فَهْمِه. أما الكَلِماتُ، فأَتَت تَلْبِيَةً لِحاجَةٍ أَمْلَتْها المستلزماتُ الأخلاقيّة. الوصايا العَشْرُ مَثَلاً، ظهرت من جرّاء الحاجة إلى إبقاء الجماعة متضامنة، وإلى التخفيف مِن حِدّةِ الخلافاتِ بينَ أعضائها. مِنَ البديهي، أنْ يَكُونَ الكتابُ المقدَّسُ قد تأثَّرَ بديانات شعوب الشرق الأدنى ومعتقداتها، ومسلكياتها. كَما أَنَّ الأَثَرَين، المصريّ والفينيقيّ، واضحانِ في المزامير.

كان أنبياء الكتاب المقدّس مَعْنِيِّينَ بالأحداثِ الّتي تَدُورُ حَولَهُم، بِمَصيرِ شَعبِهِم، وَبِشُرُوطِ الحَياةِ على الأرضِ عُمُومًا. بالنسبة إليهم، لمَ تَحْدُثِ الأُمُورُ بالمصادفة. كان هناك إلهٌ يترقَّبُ كُلَّ ما هُوَ موجود. فكتبوا ما شعروا بِقُوَّةٍ أنّه يمثّل الصوابَ والحقيقة.

عندما تحدّث الكاتبُ عن الخَلْق، كان يريد أن يقول إنّ الله وحدَهُ هو الخالق. خلقَ كلَّ شيءٍ مِنَ العَدَم. وخَلَقَ الإنسانَ على صُورتِه. كان يعني أنّ الإنسانَ وُلِدَ لِيَتَجاوَزَ نفسَه باتِّجاهِ الآخَر، باتِّجاهِ الله وخليقتِه.

مفهومُ أَحَادِيَّةِ الله تطوَّرَ في أسفار الكتاب المقدّس.لم يَكُنِ المفهومُ قَوِيًّا وواضحًا منذ بداية الإيمانِ اليَهُودِيّ.

اللّاهُوتيّون الأرثوذكس

إلى جانب نهله مِن نَبْعِ معهدِ القدّيس سرجيوس، كان الشمّاسُ يتأثّر بمفكّرين كثر، غير أن اثنين منهم برز تأثّره بهما بشكل واضح، هُما: الأبُ ألكسندر شميمان، والأبُ جون مايندورف.

ركّز شميمان على لاهوت القدّاس الإلهيّ كتعبيرٍ عن الإيمان الأرثوذكسيّ. وكان ناشطًا في الموعظة، وفي نشر رسالته في الاتّحاد السوفياتي. فمن بين كلّ اللاهوتيّين الرُّوس، كان الأب شميمان هو الذي ترك الأثر الأكبر في نفس شمّاسِنا. شميمان، المهاجر من إستونيا، ترعرع في باريس، وأمضى حياةً ذاتَ بُعدَين: روحيّ، وأكاديميّ. مَزَجَ حياةَ المُصَلِّي بحياةِ المُفَكِّر، والكاتب، والواعظ. على غِرارِ سائرِ اللاهوتيّين، تأثَّرَ شميمان بِمَنْ سَبَقَهُ. لم يكونوا كلُّهم أرثوذكسيِّين، إذ كان من بينهم هيجل، وكيركيغارد، وكارل بارت على سبيل المثال. كان شميمان كاتبًا معطاء، وشديد الاهتمام بالتراث الآبائيّ، وفَهْمِه المسيحيّ للحياة. صار تأثيرُ شميمان عالميًّا، خاصة بعد أن انتقل من أوروبا إلى أميركا، ومن التعليم إلى الكتابة، وَبَعْدَ أن نشر رسالة الرّجاءِ المسيحيّة بين أحبّائه في روسيا الخاضعة لعقيدةٍ رافضةٍ للأرثوذكسيّة.

عندما تستمعُ اليوم إلى عِظَةِ إغناطيوس الرابع المُتَّقدة، فأنت في المسار الرئيسي للاهوت الأرثوذكسي، هذا اللاهوت المشبع بفكر شميمان الذي تعمّق فيه في سان سرجيوس. فالكنيسةُ هي مجموع العلمانيّين والإكليريكيّين، ويحكمُها الله مِن فَوق. الكنيسةُ مكوَّنةٌ مِن عقيدة، ونظام، وليتورجيا، وستبقى على هذه الحال، حتّى يُسْدِلَ الله ستائرَ التاريخ.

والكنيسةُ ليست مؤسَّسةً ديموقراطيّة. إنّها استمرارية رُوحيّةٌ تبدأ بالسيّد المسيح، وتمتدُّ إلى تلاميذِه، ومطارنتِه المختارِين بواسطة الروح القدس.

مع التجسّد، اتّحدَ عالمَا الرُّوح والمادّة. لم يَعُودا متناقضَين، بل صارت المادّةُ مقدّسةً بِمَوتِ المسيح، وبانتصاره على الموت.

بالنسبة إلينا، هناك أفكارٌ فائقةُ الأهمّيّةِ في كتاباتِ شميمان الذي يعترفُ بأنّ الأرثوذكسيّةَ دِيانةُ أقلّيّةٍ كانت منقسمةً على نفسِها. ولكن مع ذلك، كان لدى هذه الأقلية إحساسٌ عميقٌ بالتميُّز. يَنبعُ هذا التميُّزُ من كَينُونتِها الصّادقة، وإيمانِها المُطلَقِ بالمسيح المصلوب والقائم من القبر، وبحقيقة الكنيسة الأولى، الطاهرة والبسيطة. هذه الاعتدادية يُحتفل بها في الأسرار.

أما مايندورف، فدرّسَ تاريخَ الكنيسةِ والآباءِ، وكان أيضًا عميدًا للمعهد. دراستُهُ عن القدّيس غريغوريوس بالاماس من القرن الرابع عشر، كانت مُلهِمةً لشمّاسنا، فاعتنق تعاليم بالاماس القائلة بأنّ الله صار إنسانًا، فأصبح باستطاعة البشر أن يختبروا الله في حياتهم. بالنسبة إليه، بقيت الكنيسةُ الأرثوذكسيّةُ الحقيقيّةُ وَفِيّةً لإرْثِها الأصليّ، لتعاليم "الأنبياء والرسل". التقليد الوحيد هو ما يعود لتاريخ الكنيسة، وكُلُّ ما تَبَقّى هو تقاليدُ مُتَفاوِتَةٌ في الدِّقّة. في هذا المضمار، كان مايندورف يتبع بإخلاصٍ الكتابَ المقدّس، والتقليدَ الرَّسُولِيّ.

أطلقَ شميمان ومايندورف ورفاقهما (مواطنوهما) الروس في سان سرجيوس حركةً نَهْضَوِيّةً في الدِّراساتِ الأرثوذكسيّة. شدّدوا على الجوهر، على حساب الشكل، وأسّسُوا لِطَرائقَ جديدةٍ للحوار. لقد كانا يحاولانِ بَثَّ الرُّوح الرُّوسيّةِ

في ثقافة أوروبا الغربيّة. فرجعوا إلى المسيحيّة الأُولى، وقدّموها للعالم حسب طريقتهم الأرثوذكسية الخاصة، وليس حسب الطريقة البيزنطيّة. كان البيزنطيّون، في أيقوناتِهم في ذلك الوقت، يرسمون المسيحَ كَمَلِكٍ مُحاطٍ بالجنود. لم يكن هذا هو مسيحَ إغناطيوس الأنطاكيّ ورفاقه، الذين استُشهِدوا قَبْلَ العهدِ البِيزنطيّ. كانوا ينظرون إلى المسيح مباشرة، وليس بالضرورة من خلال المؤسَّسات. كانوا يؤمنون بأنّ الأرثوذكسية ستزدهر طالما أنّها تنظرُ إلى حاضرِها، وتتفاعلُ معه، ولكن مع التفكير الدائم بالمستقبل. لِمَ علينا أن نتحدّث عن المَلوك، والجيوش، والمساجين، في قدّاسنا الإلهي، وكُلُّ هذه لم تَعُدْ موجودةً منذ اندثار بيزنطية. احتفظَ الشمّاسُ بهذه النظرة المسكونية التي اتّفق عليها هذانِ المُعَلِّمانِ الكَبيران. لقد تعلّم باكرًا أن يتعامل مع الأرثوذكسيّة كديانةٍ حَيَّةٍ تَتعاطى معَ الآنِيِّ والآتِي، ولا يجُوزُ إرهاقها بِتَراكُماتِ التّاريخِ القاسية.

قد يتساءلُ القارئُ لماذا كَرَّسْتُ مساحةً كبيرةً لِهؤلاءِ المفكّرين واللاهوتيّين الأوروبيّين والرُّوس! لماذا تركتُ الموضوعَ الأساسيَّ، وهو الشمّاسُ الذي يكملُ دراستَهُ! إنّها أسئلةٌ جَدِيرَةٌ بالطَّرْح. لكنْ مَن يعرفِ البطريركَ جيِّدًا، يعرفْ كم هو مهمٌّ فَهْمُ وشَرْحُ مواقفِه وأقوالِه مِن خلال المُعلِّمين الكبارِ الذين كان لهم التأثيرُ العظيمُ عليه. ما كتبوه في دراساتٍ معقّدة، فَسَّره هو بكلمات بسيطة لأناس بسطاء يصغون إليه وهو يتوجّه إلى المؤمنين المشاركين في القدّاسِ الإلهيّ يوم الأحد في كنيسة المريميّة في دمشق. إنّ الفلسفة واللاهوت هما جزء من اللغة اليوميّة التي يستعملُها البطريركُ للتَّواصُلِ مع النّاسِ الّذِينَ يَلْتَقِيهِم في كافة المناسبات. وبطريقة بسيطة، يتواصل معهم ساعيًا إلى التأثير عليهم. من هنا كان استخدامه للغة رمزية شائعة، وهو يتوجّه إلى الشعب الذي يلتقيه في الكنيسة.

الفصل الرابع

مُعلّم في مدارِس بيرُوت

كان عنوان الرسالة التي كتبها الشمّاس في معهد القديس سرجيوس "التجسّد والفداء في لاهوت القديس أثناسيوس". وبقي التجسّد والفداء الركيزتَين الأساسيّتَين للاهوته ونظرته إلى العالم. في خِضَمِّ كتابتِه للرّسالة أدركَ الشمّاسُ أنّ التعلُّمَ بالنسبة إليه ليس محاضرات وحوارات، بقدر ما هو قراءة النصوص الأصليّة والأعمال التي تعود إلى أُسُس المسيحية. إنّ تحليل النصوص هو نوع من الحرّيّة، وهو الطريقة الفضلى التي تسمح باستخراج المعنى الصحيح، والرسالة المطلوبة.

دراساته الفلسفيّة في بيروت وباريس جعلت من مهمّة تفسير النصوص مصدرَ متعة بالنسبة إليه. كان يعرف العقيدة والنصوص، ويعرف الأشخاص الذين يتوجّه إليهم؛ لأن هؤلاء هم الذين التقاهم طوال حياته. فالأرثوذكسيون في لبنان وسوريا، أناس متواضعون، أوفياء للكنيسة، وبسطاء على العموم. كان التحدّي هو التوجّه إليهم بلغتهم واستخدام رموزهم.

دراسته للرياضيّات والفلسفة ساعدته كثيرًا في دراسته للاّهوت المسيحي. وفي هذا السياق لم تكن العقلانيّة، والنظرة العلمية للأمور بعيدةً عن إيمانه

الأرثوذكسيّ. ساعدته هذه المميزات في النقاش والحوار مع الشخصيّات الدينيّة الأخرى، كما مع العلمانيّين. كان واثقًا روحيًّا، وحرًّا فكريًا. جاء التوفيق بين الإيمان والعقل طبيعيًا عند الشمّاس. وكان الأمر بالنسبة إليه في غاية السهولة.

لقد خلق الله الإنسان، ووهبه العقل والروح. والله لا يخلق أشياء لا قيمة لها، أو لا هدف منها. فالعقل كان مُرشد الإنسان في هذا العالم، في بحثه عن الحقائق المُخَبّأة في خليقة الله. أما بالنسبة إلى الروح، فالمُراد منها هو احتضان الحقيقة السماوية من خلال القبول الكامل بها، كما أورد القديس بولس في رسائله إلى الجماعات المسيحية الناشئة في مدن وقرى سوريا، واليونان، وآسيا الصغرى.

حتّى إنّ آباء الكنيسة الأولين كانوا مضطرّين للرجوع إلى خَلْفيّتِهم الثقافيّة الواسعة، وإلى اللغة اليونانية وثقافتها؛ لإيجاد المفردات المناسبة لتحديد إيمانهم، ونقل رسالتهم إلى غير المؤمنين. لا تهمّ الطريقة، إذْ كان الإنسان ملزمًا بلغته ومقَيّدًا بمحدوديّتها، وغير قادر على الإدراك التامّ للألوهيّة التي فيه. فالله لا يقيّد في كلمات.

بعد أن أكمل دراسته في معهد القديس سرجيوس في العام ١٩٥٣، عاد الشمّاس إغناطيوس إلى بيروت، إلى المطران إيليا الذي كان قد أرسله إلى الخارج لإكمال علومه. كان يدين إلى كنيسته بالعودة إليها وخدمتها، وفق ما أشار إليه المطران إيليا. كما ذهب في رحلته التَعَلُّميّة إلى بيروت على متن شاحنة، ها هو يعود من باريس على متن طائرة شحن، حيث كان المسافرَ

الوحيد. بعد عودته، رُسم كاهنًا، وأُعطي، فورًا، رتبة، أرشمندريت. عيّنه المطران إيليّا مُدَرِّسًا في كليّة البشارة، وهي ثانوية أرثوذكسيّة تحمل اسم "كليّة". أما اسم البشارة، فيعود إلى اسم السيد بشارة صبّاغة الذي تبرّع بالمبنى.

هذا المبنى المتداعي، والذي كان أصلاً ميتمًا، لم يكن ليصلح لمدرسة. وعلى الرغم من أنّ البعض شعر أنّ الأرشمندريت الواعد لن يكون قادرًا على إصلاح ما لا يمكن إصلاحه، وعلى تحويل هذا المكان إلى مدرسة، ولكّنه قَبِلَ التحدّي، وسرعان ما حقّق غايته. وكون المدرسة قريبة من الكنيسة كان يعني الكثير بالنسبة إليه. كان يريد أن يكون التلامذة الأرثوذكسيّون قريبين من كنيستهم، وأن يتعرّف التلامذة غير الأرثوذكسيّين، ولو جزئيًا، على الأرثوذكس، وعلى مؤسّساتهم، وكيف يفهمون التسامح والحرية.

أصبح الأرشمندريت مديرًا للمدرسة العام ١٩٥٤. بدأت المدرسة بالصفوف الابتدائية فقط. وكان الأرشمندريت يضيف كلّ سنة صفًّا ليستقبل التلاميذ الذين انهوا صفّهم، وهكذا حتى صارت المدرسة تضمّ كلّ الصفوف حتّى البكالوريا. في بعض الأحيان، كان الأرشمندريت يزيد صفَّيْن في السنة، وبذلك تمكّنت المدرسة من فتح صفّ البكالوريا خلال تسع سنوات بدل اثنتَي عَشْرَةَ سنَةً. كان للأرثوذكس في ذلك الوقت ثلاث مدارس أخرى في بيروت: زهرة الإحسان، مار الياس بطينا، ومدرسة "الثلاثة الاقمار" التي هي الأقدم بينها. لقد راق للأرشمندريت أن يبدأ من الصفر. كان يستمتع بحضوره عند إنشاء المؤسسات، خاصة إذا كان هو من سيتولّى قوة الدفع. بقي في كلية البشارة مدّة تسع سنوات. كانت المدرسة تعلِّم

بالفرنسيّة والإنكليزيّة، فتهيّئ طلاّبها لدخول الجامعات الأجنبيّة الخاصّة، ولاسيما الجامعة الأميركية في بيروت، وجامعة القدّيس يوسف. هذه الأخيرة أسّسها الفرنسيّون في العام ١٨٧٥، بعد عشر سنين من تأسيس الجامعة الأميركية من قِبَل الأميركيّين، والتي كانت حينذاك تحمل اسم "الكلّيّة السُّوريّة البروتستانتيّة".

بمجرّد أنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة هي التي كانت تشرف على بناء هذه المدرسة، فقد كانت تعني له الكثير. كانت المدرسة مفتوحة أمام الجميع ومن مختلف الطوائف. كان يتمّ تشجيع كل التلاميذ على الذهاب إلى الكنيسة، ليس من أجل إقناعهم باعتناق الأرثوذكسيّة، بل ليعرفوا الكنيسة كما هي، وليس كما أُخبروا عنها. معرفة الإيمان من مصادره الرئيسية، كانت مبدأ أساسيًّا بالنسبة إلى الأب هزيم.

ما عدا الصفّين المنتهيين، كانت مدرسة البشارة للصبيان فقط. ضمّت المدرسة حوالى سبعمائة تلميذ، كانت تتم متابَعتهم كلّهم عن قرب، وهذا ما أعطى المدرسة صيتًا ذائعًا. ولما كانت بصمات الأرشمندريت على المدرسة واضحة ومميّزة، عُرِفت المدرسة بمدرسة الأب هزيم.

كانت نشاطات الإرساليّات البروتستانتيّة قد بدأت تلفت انتباه الشباب الأرثوذكسيّ، فأثرت بعض العائلات الأرثوذكسيّة الأرستقراطيّة تحدّي هذه الظاهرة وإثبات قُدرتِها على الردّ، من خلال تأسيس مدارس أرثوذكسيّة. كانت هذه العائلات على تَواصُلٍ مع الأوروبيّين على المستويين الثقافيّ والتجاريّ، وتعلّم أفرادها الكثير منهم ولاسيما دعم التعليم. أوّلُ مبادرة منهم

كانت تأسيسَ مدرسة "الثلاثة الأقمار" في بيروت في العام ١٨٣٥. وقد تخرّج في هذه المدرسة آلافُ اللبنانيّين، من كافة المناطقِ والطوائف، ومن خرّيجيها العديد مِنَ المُفَكِّرينَ الرائدين في القرن التاسع عشر. في العام ١٨٨٠، أسّست إميلي سرسق، مؤسّسةً أرثوذكسيّةً رائدةً هي مدرسةَ زهرة الإحسان، أوّلُ مدرسةٍ مِن نَوعِها للبنات.

تكاثرت المدارسُ الأرثوذكسيّةُ في لبنان وسوريا وفلسطين، والسببُ يَعودُ جزئيًّا، إلى الأرثوذكس الرُّوس. إذ إنّ روسيّا، قبل سقوطها في أيدي السوفيات، كانت قد أخذت على عاتقها قضيّةَ الرُّوم الأرثوذكس في الشرق الأوسط. في القرن التاسع عشر، كانت السلطنة العثمانيّة، المعروفة في أوروبا باسم "رجل أوروبا المريض"، تنازع، وكانت الأمم الأوروبيّةُ تَحُوم حول جثّتِها المُحتَمَلة، محاولَةً التسلّل إليها عبر أَقَلّيّاتِها.

بَنَت "الجمعيّةُ الامبراطوريّةُ الرُّوسيّةُ في فلسطين"، أكثر من ١١٤ مدرسة في المنطقة، ولا يزال العديد منها قائمًا. تأسّست هذه الجمعيّةُ الامبراطورية في العام ١٨٨٠ من قِبل أعضاء مقرّبين من القيصر، نقولا الثاني، الذي أصبح رئيسَ شَرَفٍ لهذه الجمعية. اعتبرت روسيا نفسها حامية الأرثوذكسيّين في السلطنة العثمانيّة، مثلما اعتبرت فرنسا نفسها حامية الموارنة والكاثوليك عمومًا في سوريا ولبنان وفلسطين. لم تَبْنِ "الجمعيّةُ الامبراطوريّةُ الرُّوسيّةُ في فلسطين" المدارسَ فقط، بل شيّدت أيضًا الكنائسَ والأديرةَ والمستشفيات، وكان أَحَدْ أهدافِها تشجيعُ السّيّاحِ الرُّوسِ على زيارة الأراضي المقدّسة.

وكانت مدارسُ الجمعيّةِ الرُّوسيّة تدرِّسُ الدين، واللغتَين العربيّة والرُّوسيّة، والتاريخ، والإنسانيّات، والرياضيّات، والعلوم. وبالإضافة إلى كون التعليم مجانيًّا، كان التلامذة يُزَوَّدون بالكتب، والثياب، والعناية الطبية.

تخرّجَ العديدُ من كُتّابِ المنطقة البارزين في هذه المدارس. لَعَلَّ مِن أهمِّهم، ميخائيل نعيمة، الفيلسوفُ والمتصوّفُ الذي كانت له روابطُ أدبيّةٌ وطيدةٌ مع جبران خليل جبران. مدارس "الثلاثة الأقمار" والآسيّة في الشام، والمدرسة الأرثوذكسيّة في حمص، بلغت مستوى عاليًا من الامتياز، وكان لها تأثير كبير على محيطها. في العام ١٩١٣، قرّرت الجمعيّة الروسيّة فتح جامعة أرثوذكسية، على غرار ما قامت به الإرساليّات الكاثوليكية والبروتستانتية. إلاّ أنّ التطوُّرات السريعة التي أدّت إلى نشوب الحرب العالميّة الأُولى، لم تحل، فقط، دون تحقيق هذا المشروع، بل أثّرت عميقًا في كلّ مشروع المدارس. لقد ضعفت الروابط بين المنطقة و"الجمعيّة الامبراطوريّة" والسبب في ذلك ليس، فقط، صعود النظام السوفياتي، بل أيضًا إقامة دولة إسرائيل، مما أدّى إلى فصل "الجمعية الامبراطورية" في القدس، عن المدارس في سوريا ولبنان. لم تسهم هذه التطوُّرات بإضعاف المدارس فقط، بل حدّت كثيرًا من مجيء الحجّاج الرُّوس إلى الأراضي المقدَّسة، وقلّصت المساعدات الرُّوسيّةَ التي كان يرسلها الروس إلى الكنائس، مثل: الأيقونات، والشمعدانات، والأثواب الكهنوتيّة.

بينما كانت روسيا مهتمّةً بالمدارس، كانت اليونان تحاول بَسْطَ نُفُوذِها

من خلال إحياءِ التّقليدِ البيزنطيّ. التشديد على إبقاء اللغة اليونانيّةِ لُغَة الليتورجيا في الكنيسة الأرثوذكسيّة الأنطاكيّة، كان العنصرَ الأهم في السياسة التي اتّبعَتْها اليونان. على أنَّ اللغةَ اليونانيّةَ كَلُغَةٍ في الكنيسة الأرثوذكسيّةِ في الشرق العربيّ، كانت في تَراجُع منذ القرن التاسع عشر. ولكن عندما استطاعت اليونانُ ترسيخ استقلالِها عن العثمانيّين في عشرينياتِ القرن التاسع عشر، بدأت تتطلّع إلى الخارج، إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة في الشرق العربيّ، وفي نيّتِها محاولَةُ تأمينِ موطئِ قَدَمٍ سياسيٍّ لها هناك. وقد ساعدها بعض الكهنة الأرثوذكس، والشمامسة، والمطارنة الذين كانوا قد تلقّوا علومَهم اللاهوتيّةَ في جامعاتٍ ومعاهدَ يونانيّةٍ.

كان ثَمَّةَ عُنصرٌ إضافِيٌّ آتٍ من لندن وباريس. فبَعدَ انتصارِ الحُلَفاءِ في الحرب العالميّةِ الأُولى، وَبُرُوزِ الانتدابَين الفَرَنسِيّ والبريطانيّ، في لبنان وسوريا، وفلسطين، والعراق، كانت المناهج التعليميّةُ الفرنسيّةُ، والإنكليزيّةُ والأميركيةُ، تنساب باتّجاه المنطقة، وَتَحُدُّ بذلك من انتشار المدارس الثانويّةِ الدّينيّة الرُّوسيّةِ.

في منتصف القرن التاسع عشر، كان الإنجيليّون الأميركيّون يَبنون المدارسَ والمستشفياتِ في الشرق الأوسط. فأتت الإرساليّاتُ البروتستانتيّةُ من أجل تخليص النفوس، وهداية الأرثوذكس، والكاثوليك، والمسلمين إلى البروتستانتيّة. وقد نجحوا أكثر مع الأرثوذكس الذين كانوا توّاقين لتعليم أولادهم في المدارس الجديدة لقاء اعتناقهم الكاثوليكية، أو البروتستانتية. كان تأسيسُ المدارس والجامعاتِ والمستشفياتِ وسيلةً للوصول إلى النهاية

المباركة. أحسّ الكاثوليكُ بالتحدّي بَعْدَ الغزو البروتستانتيّ، فأسّسوا المدارسَ الكاثوليكيّة. المنافسة بين البروتستانت والكاثوليك حوّلت لبنان إلى حلبةِ صراع طائفيّ، وذلك من خلال فتحِ المدارسِ والتّأسيسِ لِنَماذجَ تعليميّةٍ شديدةِ الأختلاف.

كان أرشمندريّنا واعِيًا لِهذه المنافسة الخارجة عن رُوح الشّرق. كان مَعْنِيًّا بالسُّهولةِ النّسبيّةِ التي كان يُقنِعُ فيها المبشّرون الكاثوليك والبروتستانت الشبابَ الأرثوذكسيّ، خاصّةً في قُرى لبنان وسوريا الفقيرة. إستاءَ مِن هذا التّدخُّل، وزادَ هذا الاسْتِياءُ مِن حِدَّةِ تَصميمِه على تأسيسِ مدارسَ أرثوذكسيّة، وإنقاذِ الأرثوذكسيّةِ الشّرقيّةِ مِن خطرِ الزَّوال.

في العام ١٩٦١، انتُخب الأرشمندريتُ مطرانًا، وعُيّن وكيلاً بطريركيًّا، واختار أن يسمّى "إغناطيوس". لم يَكُنْ مرتاحًا في مهمّاتِه الإداريّة في البطريركيّة. فطَلَبَ من البطريرك ثيوذوسيوس (أبو رجيلي) أن يَنقُلَهُ إلى دير البلمند في شمال لبنان. "الدير خَرِب" قال له البطريرك، "ولكن كيف ستتمكّن من العيش هناك؟" فأجابه المطران "لا تقلقوا صاحب الغبطة، فحيث أكون أنا، لا يكون هناك خراب".

سمح البطريركُ للمطرانِ بالذَّهابِ إلى البلمند. لكنّه كان يحتاج إلى موافقةِ المجمع المقدّس من أجل إلغاء تعيينه كوكيل بطريركيّ. بمباركة البطريرك، كَتب استقالتَه، وطلب من المطارنة، الواحد تلو الآخر الموافقة على استقالته من منصبه في البطريركيّة، وعلى تعيينه في دير البلمند. وهكذا حصل على موافقة جميع المطارنة في المجمع المقدّس.

الفصل الخامس

مُطران في البَلمَند

بعد الحصول على موافقة البطريرك ثيوذوسيوس، توجّه المطران إغناطيوس نحو دير البلمند، طالبًا من البطريرك عدم انتظار أيّ حوالةٍ ماليّةٍ من قِبَله. والبطريركيّةُ، كما هو معروف، كانت تعتمد ماديًا على الحوالات الماليّة المرسَلةِ من الأديرة البطريركيّة، والتي يشكّل البلمند واحدًا منها. وصل المطران إلى البلمند في صيف ١٩٦٢، وكان معه كاهنٌ، هو أبونا يوحنا، وعاملٌ واحد يقوم بجميع الأعمال، من الحراسة إلى أعمال الحديقة، مرورًا بنقل الرسائل.

بُنيَ دير البلمند في العام ١١٥٧ من قبل الرهبان السيسترسيّين الكاثوليك. أتى السيسترسيّون إلى الشرق، على أعقاب الحملة الصليبيّة الثانية، بهدف تأمين الإرشاد الروحيّ والدينيّ للصليبيّين. كان الرهبان والفلاّحون هم سكّان الدير في البداية. وبسبب صراعات القرون الوسطى وحروبها، كانت الأديرة تُبنى كحصون عسكريّة، بهدف الدفاع عن نفسها، فكانت نوافذُها عاليةً وضيّقةً جِدًّا، مع كُوًى مستطيلةٍ في الجدران تسمح برمي السهام.

اختار السيسترسيّون تلّةَ البلمند كَبُرج لِمُراقبةِ السُّهول والشواطئ المحيطة. عملوا على إدارة الدير لمدة تتجاوز القرن، قبل أن ينسحبوا تحت ضربات

المماليك المسلمين المقيمين في طرابلس. وتجدر الإشارة إلى أنّه خلال المدة الممتدة من رحيل السيسترسيّين إلى الغزو العثمانيّ للمنطقة في العام ١٥١٦، لا يُعرف الكثير عن تاريخ الدير.

لكنّنا نعرف أنّ الدير في القرن السّادس عشر كان للروم الأرثوذكس، يديره رهبان أرثوذكس. كتب الرهبان المخطوطات، وعملوا في الزراعة، وكان ديرُهم مأوًى للكورانيّين. في القرن التاسع عشر أُسّست مدرسةٌ لإعداد الكهنة، تعلّمهم القراءة والكتابة، وتفسيرَ الكتاب المقدّس. المدرسة، كما الدير الذي يحضنها، عرفت مراحل من العُسر واليُسر، إلى أن حصلت على الاستقرار والرِّفعة اللذَين تتمتّع بهما اليوم.

عندما وصل المطران إغناطيوس إلى البلمند، كان الدير في أسوأ أحواله. كان الدير خاليًا مِن أيِّ أَثَرٍ للحياة: لا ماء، لا كهرباء، وَلا حتى طريق تَسمحُ للسّيّاراتِ بالوصول إلَيه. سيّارةٌ واحدة كانت تأتي مرّةً في الأسبوع إلى قلحات، القرية الأقرب إلى الدير، وكان المطران يعتمد عليها لتلبية حاجاته الأساسية. يوم وصوله إلى الدير، تقاسم هو والأب يوحنا، رغيفًا واحدًا من الخبز على وجبة العشاء. لم يستطيعا النوم. لم يخبر أحدٌ السكانَ الجُدُدَ عن "بَرغَشِ" البلمند الشّهير. كانت تلّةُ البلمند تعجُّ بِهذه الحشرات السيّئةِ السُّمعة، مثل الجراد في الأزمان الغابرة. يبدأ هجوم هذه الحشرات حوالى الساعة السادسة مساء، ويستمرّ طيلة الليل، وهو يُصدِر أزيزًا حادًّا يستحيل معه النوم. تَلْسَعُكَ هذه الحشرات، وتُزعِجُكَ، وَتُجْبِرُكَ على العِراكِ معها. لم يكن هناك ناموسيّة، ولا بَلْسَمٌ يَقِي مِن هذه الجيوش الجرّارة.

في البلمند، طلب المطران التحدّي وكان له ما أراد. ولكنّ أوّلَ سؤال واجهه كان: كيف يستطيعُ العيشَ مِن دُونِ مَدخُول، ومن دون داعِم له؟ حَولَ الدَّيرِ أَراضٍ شاسِعَةٌ، هيَ ما يُسَمّى بـ"وَقْفَ الدَّير". صارت هذهِ العقاراتُ وَقْفًا لدير سيدة البلمند مِن قِبَلِ عائلات المؤمنين أملاً بالرحمة والشفاعة. فإذا مَرِضَ ابنٌ، أَهدى الوالدُ قطعةً من الأرض إلى سيّدة البلمند، كَفِعلِ رَجاءٍ بِشِفاء ابنه، عَبْرَ شفاعة العذراء مريم عند الله. كما أنّ البعضَ كانَ يهبُ الأراضي إلى الدير بهدف التهرّب من الضرائب. هنا وقائع تشير إلى أن الرهبان قاموا بشراء أراضٍ لاعتقادهم بأنها سوف تدرّ عليهم مداخيل إضافية. والجديرُ بالذِّكر أنّ الأرض، حِينذاك، لم تكن ذات قيمةٍ مادّيّة نظرًا لغياب العمران والمشاريع الإنمائيّة. مع مرور السنوات، أصبح الدير من أكبر ملاّكي الأراضي.

تتكوّن أرض الكورة بغالبيّتها من حقول الزيتون، والكرمة، والليمون، وسهول منبسطة يمكن أن تُزرع بالقمح والشعير. ولكنّ الأرض لا تُعطيك إلاّ إذا اهتمَمْتَ بها، فحرَثْتَها، وخصَّبْتَها، ورويتَها. لذلك، باستطاعتك أن تملك الكثير من الأراضي، وتكون فقيرًا في الوقتِ نفسِه. الوقف، بالنسبة إلى رجل دِين، ورجلِ حَيِّ الضّمير، هُوَ وَقْفٌ فقط، بمعنى أنّه مجموعةٌ من الأراضي موضوعةً في رعاية الدير، وهي ليست للمقايضة، ولا للبيع. كان المطران لا يستطيع أن يصدّقَ أو يتقبّلَ مُجَرَّدَ التّفكيرِ في أنَّ بإمكان البطريركَ أن يبيعَ ما هُوَ مؤتَمَنٌ عليه. ولكن للأسف، كان ذلك يحصل من وقت إلى آخر. وكَم غَضِبَ المطرانُ الشّابّ عندما علم أنّ سَلَفَه قد باع قطعةً مميَّزةً من الأرض في بطرّام. هذه القطعة التي كانت تحتوي على أشجار زيتون مميّزة،

عمرها مئات السنين، تمّ بَيعُها من قِبَلِ المالك الجديد إلى معمل الإسمنت الذي اقتلع الأشجار، واستعمل ترابها الأسود الغنيّ في صناعة الإسمنت. كان ذلك في نظر المطران جريمة مزدوجة. بالنسبة إليه، الوَقْفُ أمانةٌ رَفيعةٌ على الصعيد الأخلاقيّ، ولبَيعِهِ تَداعِياتٍ أثيمة. إذًا، كيف الاستفادة من الأرض لتأمين الحاجات الضروريّة، مِن دُون بَيعِها؟ ولما لم تكن للمطران خبرةٌ في الزّراعة، كان عليه الاتّكالُ على شخصٍ ذِي خبرة. هذا الشخص كان إبراهيم النجّار من بشمزّين. كان الرَّجُلانِ قد الْتَقَيا آنِفًا. بالنّسبة إلى المطران، كان إبراهيم صديقًا وفيًّا، ومن أبناء الكنيسة الحقيقيّين، ولكنّه كان أيضًا رَجُلَ أعمالٍ حاذِقًا، والمستشارَ المِثاليّ لِساكِنِ الدّيرِ الجديد. إبراهيم، ابن الكورة، كان يملك أشجار الزيتون، وكان الأكثر أهلية لإسداء النُّصْحِ إليه في كلّ ما يَتعلّق بهذه المسألة. كان المطران يتبع، من دون تردّد، نصائحه التي كانت دائمًا ناجعة. لم تكن كُلُّ أراضي الدير زيتونًا، فهناك الكثير من بساتين الحمضيّات: البرتقال، والليمون الحامض؛ وأيضًا مساحاتٌ شاسعة من السّنديان الكثيف إلى درجةٍ يتعذَّرُ اختراقُها. أدّى الاستعمالُ الذكي للسّنديان إلى الحصول على الفحم، كمصدر مهم للنار، من أجل الطبخ، والتدفئة في فصل الشتاء. أما القسم الأعلى من تلّة البلمند، حيث الأرض منبسطةٌ، فكانت مرعى تَرعى فيها الأغنامُ والماعز، ولم يكن من الممكن الاستفادةُ منها بشكلٍ أفضل.

سأل المطران، بِدافِعِ الفُضُول، صديقَهُ إبراهيم عن كيفيّة استغلال الأرض السّليخ (أرض من دون شجر). ولما كانت الزراعة مثل غيرها من الأعمال، عُرْضَةً للبِدَعِ الموسمِيّة، وكانت البدعة في ذلك الوقت، زراعة التبغ وبيعه

لدّ"ريجي " (Régie)، الشركةِ اللبنانيّةِ الرّسميّةِ لِتجارةِ التّبغ، قام بزَرْع التّبغ. كان يتفقّدُ النّباتاتِ يَوميًّا، ويندهش عند رؤيةِ نُمُوِّها السّريع ، وجَمال أوَراقِها الخضراءِ اللامعة، كما كان يحاولُ أنْ يحسبَ المبالغَ الّتي سيَجْنِيها من هذه المغامرة. هناك وقت للزراعة، ووقت للجَني. موسم الحصاد كان ذا أهميّةٍ كُبرى. قُطِعت النباتات، وجُفِّفت، وتَمّ الاحتفاظُ بالأجزاءِ الجيّدة منها، وإبعادُ الأجزاءِ السيّئة. ولكن من ذا الذي يستطيعُ أن يَحْكُمَ أنَّ هذا الجزءَ هو الجيّد، وذاك هو السيِّئ؟ بِكُلِّ ثقة، أخذَ المطران المحصول إلى "الريجي" وانتظر المكافأة الماليّة. كانت خَيبةُ أَمَلِهِ كبيرةً، عندما عرَفَ أنّ الأجزاءَ الّتي تَخَلَّص منها هي الأجزاءُ الجيّدة، والأجزاءَ الّتي احتفظَ بها لا قيمةَ لها. لا يتعلّم الإنسان إلاّ من أخطائه. فتعلّم المطران ألاّ يزرع التّبغَ ثانيةً. وكان القرار صائباً. فهو لم يكن يدخّن ولم يكن محبّذًا لتدخين الآخرين. من أكثر المنتوجات التي كان يحبّها بعد الزيتون، اللوزُ الغنيّ بالأزهار، واللذيذُ الطعم. لوز البلمند هو الأفضل في المنطقة. ومع أنّ هذه الشجرة على وشك الانقراض من منطقة الكورة الوسطى، إلاّ أنّها ما زالت موجودة على تلّة البلمند، وهذا ما يَرُوقُ لكلّ البلمنديّين، وخاصّة طلاّب المدرسة، والمعهد، والجامعة.

مَرحَلة التّغييرات

أكبر تحدٍّ بالنسبة إلى المطران كان الوصول إلى المدينة، أي شقّ طريق يصل الدير بالطريق الرئيسيّ الذي يؤدّي إلى طرابلس وبيروت. في أوائل الستينيات، كانت الحكومةُ اللبنانيّةُ تَدرُسُ إمكان تحويل هذا الطريق الضيّق نسبيًّا، من طرابلس إلى بيروت، إلى أوتوستراد رئيسي (كلمة أوتوستراد هي

الكلمة التي كانت مستعملة في ذلك الحين محاكاة لشبكة الطرقات الواسعة والسريعة التي فتحها هتلر في ألمانيا في الثلاثينيّات). ما زالت هذه الكلمة مستعملةً في لبنان حتى اليوم للإشارة، بشيء من الفخر وبكثير من المبالغة، إلى كلِّ طريقٍ رئيسيٍّ في البلاد.

الأوتوستراداتِ، بالنسبة إلى الشعب، تعني التطوّر والحداثة والامتداد الجديد للقرى على طول الشاطئ الهادئ الذي يربط طرابلس ببيروت. حاول مالِكُو الأراضي الضَّغطَ على الحكومة كَي يَمُرَّ الأوتوستراد في أراضيهم. فكلّما كانت الأرض أقرب إلى الأوتوستراد، ارتفع ثمنُها. مِنْ حُسْنِ حَظِّ المطران، أنّ رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة حِينذاك، سليمان فرنجيّة، كان من زغرتا، وهي بلدةٌ قريبةٌ من الكورة، كان يحترم المطران ويقدّره. زار الرئيس فرنجيّة المطران وعَرَضَ عليه المساعدة. فطلب المطران أن يمرّ الأوتوستراد في أراضي الوقف المبارَكة، ويباركَها على طريقته. ثمّ نصح المهندسُ كلوفيس معلوف المطرانَ بطريقٍ يَصِلُ الدّيرَ بالأوتوستراد الجديد. هذا الطريق سيحرّره من سلوك الطرقات المتعرّجة عَبْرَ القُرى الكُورانيّةِ المُؤَدِّيةِ إلى طرابلس، والسّاحل، وبيروت، وباقي المناطق اللبنانيّة. كان هذا الطريق، هو طريق الخلاص، وكان المطران فخورًا به. بدأت تَظْهَر مواهب المطران كمُخطِّط ومنفّذ للمشاريع. كانت علاقتُهُ بالرئيس فرنجيّة مهمةً جدًّا، إذ إنّه في لبنان كما في العديد من البلدان النامية، لا يستطيع المرءُ تنفيذ أي مشروع إنْ لَمْ يَكُنْ مدعومًا بنفوذٍ سياسيٍّ ما.

كانت السّتينيات زمن التغيُّرات. فالدّير، الذي كان مرعًى للماعز، سرعان ما تحوّلَ إلى مركزٍ دينيٍّ وثَقافِيٍّ رئيس. يملك الدّير مُقَوِّماتٍ أثرية هامّة، منها الكنيسةُ القديمة، وهي حِصْنٌ مِن القَرنِ الثّاني عشر، ولكنّ كلَّ ما فيها كان

مُهْمَلاً. أقنعَ البطريركُ مُدِيرَ الآثار اللبناني حينذاك، موريس شهاب بزيارة الدير. وعندما جاء السيّد شهاب إلى الدير، رأى فيه كنزًا أركيولوجيًا مُخبّأً، فتعهّد بإصلاحه وإعادته إلى مجدِه التاريخيّ. بالنسبة إليه، كان الدير يكمّل الكنوزَ الأثرية النَّفِيسةَ في جبيل، والتي كان فريقه يعمل على إحيائِها بجِدِّيَّةٍ تامّة.

كُلُّ عَمَلٍ صالح هُوَ عُرْضَةٌ للتَّشْهير. تحوّل تَرميمُ الدير مادّةً دَسِمَةً للمُفتِنين، وما أكثَرَهم! انتشرت شائِعَةٌ بِسُرعةِ النّارِ مَفادُها أنّ المطران إغناطيوس باع الدّيرَ لِمُدِيريّةِ الآثارِ اللُّبنانيّةِ، والدّليلُ على ذلك، أنّ عُمّال المُدِيريّةِ كانوا في الدّير يَحفرون، ويُرتّبون، ويُنظِّفون، ويُصلحون. وَصَلَ الخَبَرُ إلى البطريرك في الشام. وغالبًا ما تبدو الشائِعَةُ مُقنِعة. مع ذلك، أخذ مطراننا الأمر برويّة، على عكس البطريرك الساكن بعيدًا في دمشق. أُبْلِغَ المطرانُ أنّ عليه الحُضُورَ فورًا إلى الشام، فبدأ يفكّرُ بوسيلة لِدَحْضِ هذه الشّائعةِ المُغْرِضة التي بدأت تأخذُ الكثيرَ من الأهميّة، وبدأ الناس يتعاملون معها وكأنّها حقيقةٌ مؤكَّدة. وصل المطران إلى دمشق بسرعة، ووجد نفسَهُ أمامَ مَحكمةٍ كَنَسِيَّةٍ الْتَأَمَتْ لِمُحاكَمَتِه. قال المُدَّعِي الذي لم يَكُنْ صَدِيقَ مِطرانِنا البَلَمَنديّ: "كما يَعرِفُ جميعُكم، لقد باعَ المطرانُ الدَّيرَ، ولم يَكُنْ لَدَيهِ الحَقُّ وَلا السُّلْطَةُ الّتي تُخَوِّلُهُ ذلك. إنّ قَرارَ البَيعِ مُرْتَبِطٌ بالبطريرك، والبطريرك وحْدَهُ مؤهَّلٌ لأَخْذِ قراراتٍ مُماثِلة. أمّا الآن، فقد بيعَتِ الأرض، وإنْ بِطَرِيقَةٍ غَيرِ شَرْعِيّة، وصارتْ ملكًا للدّولة اللُّبنانيّة". قَبْلَ أَنْ يُعطى المطرانُ فُرصةَ الكلامِ وَالدِّفاعِ عن نفسِه، هاجَمَهُ أعضاءُ المحكمةِ الآخَرُون مِن دُونِ أَدْنى اهتمام بالتّأكُّدِ مِنَ الوقائع. ثُمَّ فَجأةً، عَلا صَوتُ أَحَدِ الأعضاء، وهو محام، فَدَحَضَ هذا الأخيرُ كُلَّ الاتِّهاماتِ المُوَجَّهَةِ إلى المطران، وَحَيَّاهُ كَبَطَلٍ أَنقذَ ديرَ البلمندِ مِنَ

الخَراب، وأعادَهُ إلى مَجْدِهِ القديم. وتابع المحامي قائلاً: إنّ المطران لَمْ يَبِعِ الدَّير، لَمْ يَكُنْ لِيَبيعَهُ، لأَنَّهُ آخِرُ مطرانٍ في الكنيسة الأرثوذكسيّةِ يُمْكِنُ أَنْ يُخالِفَ القوانين. بيَّنَ المحامي أنَّ الشّائِعَةَ عارِيَةٌ عن الصِّحّة، وانتهتِ المحكمةُ بتهنئة مطرانِنا على أعمالِه الصّالحة، وإدانةِ مُطْلِقِي الشّائعات.

في الدّيرِ كنيستان: الكنيسةُ الرئيسيّةُ، وهي كنيسةُ سيّدةِ البلمند، وكنيسةٌ أصغرُ منها هي كنيسةُ القدّيس جاورجيوس. رَمَّمَ المطرانُ الكنيستَين، والأيقونات. وبِمُساعَدَةِ مُدِيريّةِ الآثار، تمكّنَ من إصلاح العديد من الغُرَفِ والقاعاتِ الّتي كانت، بداية، بحاجة إلى أن تُحفَر وتُفَرّغ من مُحتواها. مِن بَينِ تلك القاعات، القاعةُ الكبيرة التي ندعوها اليوم، القاعة الرئيسيّة، وهي قاعةٌ بديعةٌ تُستعمَلُ للحفلات الفنّيّة والمُحاضَراتِ التي تستقطِبُ جمهورًا كبيرًا مِن كُلِّ لبنان. يقول القرويّون، وهم يتذكّرون الدّيرَ كما كان قبل مجيء المطران هزيم، إنّ المكان كان مهجورًا إلاّ من الماعز والرُّعيان الذين وجدوا في هذه القاعات الكبيرة مَرْتَعًا مِثالِيا لِقُطْعانِهم.

أما زُجاج الكنيسَتين، فقد تَمَّ استِيرادُه من فرنسا لتزيين النّوافذِ الرّائعةِ. وقد تبرّع العديدُ مِنَ المُحسِنين الأرثوذكس بمبالغَ كافيةٍ مِن أجلِ ترميمِ القاعات والصَّوامع المُتَبقّية.

في الكنيستَين أيقونات مميَّزة تمثّلُ عِدّةَ مدارسَ لِرَسْمِها. كانت هذه الأيقوناتُ مَحَطَّ إعجابٍ وَعِبادَةٍ عِندَ كُلِّ الأرثوذكسيّين. وكانَ يوماً أسودَ ذاك اليومُ من السبعينيات الّذي تَمَّتْ فيه سَرِقَتُها، في وَضْحِ النّهار، مِن قِبَلِ بعض رِجالِ الميليشيا خلال الحرب اللبنانيّة الداخلية.

ولكنْ تمّ إنقاذ كُلِّ الأيقوناتِ، ما عدا واحدة - يوم الدينونة -، على يَدِ الرّئيس أمين الجميّل الذي اشتَراها من رجال الميليشيا، وأعادها فورًا إلى الدير. أمّا أيقونةُ الدَّينونة، فيَفْتَقدُها كُلُّ مَن سَبَقَ أَنْ رآها وأخذَ بركتَها، ولم يُعرف حتى الآن شيء عن مصيرها.

أعاد المطرانُ إحياءَ مدرسةِ البلمند التي كانت قد تأسّست بِفَرَمانٍ عُثمانيّ صَدَرَ في العام ١٨٣٣، وسَمَحَ بإنشاءِ مدرسةٍ وبَرامجَ للتّعليم العالي. كانت المدرسةُ تُعَلِّمُ الكتابةَ والقراءةَ، والحسابَ، والطقوس الأرثوذكسيّة. مَرَّتْ بمراحلَ مِنَ العُسْرِ وَاليُسْرِ، تَفتَحُ أبوابَها حِينًا وتُغْلِقُها حينًا، تِبْعًا للظُّرُوفِ السياسيّة في لبنان، وخاصة في شمال لبنان. حوّل مطرانُنا المدرسةَ إلى ثانويّةٍ مميَّزة، تُعطي شهادة البكالوريا، وتُدرِّسُ آلافَ الطُّلاّب مِن مختلفِ الانتماءات الدّينيّةِ والمَذْهَبيّة. وكانت شهادة البكالوريا هذه، تؤهّلُ صاحبَها دُخُولَ الجامعات اللبنانيّة، وبالتالي الجامعات في الخارج.

أمّا تأسيسُ معهدِ اللاهوت، فكان الإنجازَ الأَهَمَّ. من أجل تزويده بأفضل المستويات الأكاديميّة، اجتمع المطران هزيم بعمداء كلّيات اللاهوت في أوروبا، ووضعوا معًا برنامجًا أكاديميًّا يَمنَحُ إجازةً في اللاهوت. بالإضافة إلى استقبال معهد اللاهوت العديد من خرّيجي مدرسة البلمند، فإنّ معظم مطارنة الكنيسة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة الحاليّين هم من خرّيجيه.

تمّ تأسيس معهد اللاهوت باقتراح من متروبوليت أميركا الشمالية، المطران

انطونيوس بشير، الذي قدّم الدعم المادي لتشييد البناء. كان شرط المطران بشير أن يكون المعهد بإدارة المطران إغناطيوس. أكمل، بعد المطران بشير، المطران فيليبس (صليبا) هذه المهمة مقدّمًا كل الدعم للمعهد.

بالإضافة إلى تعليم اللاهوت، وإعداد قادة الكنيسة الأرثوذكسيّة، عمل المعهدُ بِجُهْدٍ على دراسة المخطوطات. مئات من هذه المخطوطات صمدت في الدّير على الرّغم من الإهمال الذي لَحِقَ بها لِفَتْرَةٍ طويلة. ومِن أجلِ دراستها وتوثيقها، استُعين بِذَوِي الاختِصاص. في معهد البلمند، الآن، مركزٌ تقنيٌّ متطوّرٌ، مهمّتُه ترميمُ هذه المخطوطات. وقد تم ترميم مخطوطٍ ونَشرُه تحت اسم "النّاموس الشريف"، وهو مُرشِدٌ ضروريٌّ لِمَعرِفَةِ العقائدِ والممارساتِ الأرثوذكسيّة.

النّــاموُس

المخطوط المسمّى بـ"الناموس الشريف" هو مجموعةُ عقائدَ وقوانينَ كنَسيّةٍ اعتمدَتْها الكنيسةُ في ظِلِّ العهدِ البيزنطيّ. كُتبَتْ هذه القوانين مِن قِبَلِ آباء الكنيسة الأولين. ويحتوي الناموس على مبادئ وأحكام المجامع المسكونيّة السّبعة الأُولى. بقي مخطوط "الناموس" لِقُرُونٍ عِدَّةٍ مرجعًا في ما يَخُصُّ المسائلَ الرُّوحِيّة، والإكليريكيّة، والشخصيّة.

عندما احتلّ العثمانيّون القسطنطينيّة في العام ١٤٥٣، تَمَّ الاعترافُ بالمسيحيّين كجماعةٍ مستقلّةٍ أو مِلّة، وسُمِحَ للبطريركِ بالاحتفاظِ بموقعِه في القسطنطينيّة، وبتطبيقِ القوانين المسجَّلة في "الناموس".

مُطـرَان اللّاذقِـيَّة

عندما شَغَرَ مَنصِبُ مطران اللاذقيّة، تَمَّ التّفكيرُ بالمطران إغناطيوس لِيَشْغَلَه. كانت اللاذقيّةُ، المدينة التي تستقطبُ اللاجئين الأرثوذكس من جنوب تركيا، ومن اليونان، وحتّى من سوريا نفسِها، مما زاد عدد سُكّانِها، مِن أَلفِ أرثوذكسيٍّ في العام ١٩٠٠، إلى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا في العام ١٩٧٠. غير أن المدينة كانت منقسمةً على نفسِها، وتعيش في خِضَمِّ خلافات أثّرت سلبًا على مطراننا. كانت العائلات الميسورةُ في صِراعٍ دائم، وكان المطرانُ يُحاولُ إصلاحَ العلاقات في ما بينها.

في الثلاثينيات والأربعينيات، كان الأرثوذكس منقسمين في أنطاكية بحدّة، ما أدّى إلى انشقاق قاد، مرحليًا، إلى تأسيس "الكنيسة الأرثوذكسية المستقلّة". وظهر انشقاق جديد في المجمع المقدّس في العام ١٩٦٦.

إنتخب المجمع المقدّس المطران إغناطيوس مطرانًا للاّذقية. كانت غالبية الشعب في اللاذقية تعرف المطران الجديد وتحبّه، فمنحته كلّ دعمها، ولكن أقلية إستمرّت تعمل ضدّه. ساندت الحكومة السورية، حينذاك، الأقلية الرافضة للمطران، معتبرة خطأً أن لدى المطران ميولاً غربية، ربما لأنه درس في الجامعة الأميركية، ثم في معهد القديس سرجيوس في باريس. في هذا الجو السياسي من الشائعات المغرضة والانشقاق، منع محافظ اللاذقية المطران المعيّن حديثًا من دخول اللاذقية، وتولّي مَهمّاته الجديدة في المطرانية. ولمدّة أربع سنوات

متتالية، كان المطران الرسمي لمدينة اللاذقية يدير شؤون مطرانيته من البلمند. وقد تكون هذه إرادة ربّنا في أن يكمل رئيس الدير عمله فيه قبل أن يتركه.

عندما تمّ انتخاب الياس الرابع (معوّض) بطريركًا، تمكّن هذا الأخير من إقناع الرئيس حافظ الأسد بتغيير سياسة الحكومة، فدُعي المطران إغناطيوس للحضور إلى اللاذقية، وتسلُّم منصبه. نتيجة لهذا التغيّر السياسي، وصل المطران إلى اللاذقية، واستُقبِل بحرارة من قبل رعيته. أول انجاز حقّقه، كان وقْف صراع عائلات اللاذقية الذي أدّى إلى الانشقاق، وتوحيد المدينة تحت قيادته الروحية. عمل المطران جاهدًا على تنظيم الأوقاف، فبنى فندق النور، وحصل من الحكومة على الاعتراف بالأوقاف كمؤسسات خيرية، وبالتالي على إعفائها من الضرائب. عزّز المطران إغناطيوس المدرسة الوطنية الأرثوذكسية؛ وفسح المجال للإكليريكيين كي يتعلّموا ويتولّوا المراكز القيادية. كما قام بتخصيص رواتب للكهنة حرّرتهم من التدخلات الفاسدة للطبقة النافذة.

المجلس العالمي للكنائس

خلال عمله في البلمند وفي اللاذقية، كان المطران إغناطيوس لا يزال ناشطًا في المجلس العالمي للكنائس. لقد أعطى هذا المجلس المطران إغناطيوس فرصة التعاطي مع زملاء له من الكاثوليك والبروتستانت. ولكن إستمر أساتذة اللاهوت، في معهد القديس سرجيوس، مصدر إلهامه الرئيسي. كان

أعضاء المجلس، من لاهوتيين، ورجال دين، وعلماء من بلدان متعدّدة، كالولايات المتحدة، وفرنسا، وبريطانيا، وسويسرا. أما المقر الرئيسي للمجلس، فكان ولا يزال في جنيف بسويسرا.

عمل المجلس العالمي للكنائس من خلال لجانه المتعدّدة، التي ترأّس مطراننا العديد منها، وكان عضوًا في لجنتها المركزية. وعندما صار بطريركًا، ترأس مجلس الكنائس العالمي في الثمانينيات.

تأسس المجلس العالمي للكنائس في العام ١٩٤٨، من أجل تعزيز الوحدة المسيحية في وجه العقائد الخطيرة، والانشقاقات الراديكالية. التقى، حينذاك، مئة وخمسون ممثلاً عن ثلاثمائة كنيسة في أمستردام، وكان لدى المجلس جدول أعمال طموح، ألا وهو التوصّل، يومًا، إلى كنيسة رسولية واحدة ومقدّسة. وقد عقد المجلس لهذه الغاية اجتماعات عدّة لتعزيز وحدة العقائد، والعدالة الاجتماعية، وحوار الأديان.

التحق الشمّاس الشاب حينذاك بالاتحاد العالمي للشباب المسيحي، وكان نائب رئيس له لمدّة تسع سنوات (١٩٦٠-١٩٦٨). نشأ الاتحاد في العام ١٨٩٥ من رحم حركة إنجيلية بروتستانتية كانت ناشطة في الجامعات على وجه الخصوص.

كان الشمّاس من بين مؤسسي السندسموس أو "الرابطة العالمية للشباب الأرثوذكسي"، وهي منظمة عالمية جمعت في صفوفها مئة وخمسين منظمة شبابية في خمسين بلدًا. هدف السندسموس الأساسي هو زيادة الوعي

الأرثوذكسي بين الشباب، وتقوية إيمانهم في وجه الحركات الملحدة المنتشرة في العالم.

شارك الشمّاس أيضًا في تأسيس "مجلس كنائس الشرق الأوسط"، وكان رئيسًا له. يقوم مجلس كنائس الشرق الأوسط بالتنسيق بين نشاطات هذه الكنائس، ويتعاطى شؤونًا متعلّقة بها وبالتحدّيات التي تواجهها. ومن بين هذه التحديات، هجرة المسيحيين التي تهدّد الوجود المسيحي في فلسطين، ومصر، والعراق، وسوريا، ولبنان. كما يهتم المجلس بتوحيد معتقدات وشعائر كنائس المنطقة، وبإحياء الإيمان الرسولي الأصيل.

الفصل السّادس

البطريرك والرؤية الإصلاحيّة

البطريرك الذي كان المطران إغناطيوس مسؤولاً تجاهه هو صاحب الغبطة الياس الرابع، المتحدّر من قرية أرصون اللبنانيّة، والذي، شغل، سابقًا، منصب مطران حلب. عند وفاته السنة ١٩٧٩، بدأت حملةٌ لانتخاب خلَفٍ له. كان إغناطيوس في مطرانيّتِهِ في اللاذقيّة، عندما تَلقّى اتّصالاً هاتفيًّا من مطران حمص يُعْلِمُه بوَفاةِ البطريرك، ويستعجلُه الحضورَ إلى الشام من أجل العمل على مراسم الدّفن وانتخابِ خَلَفٍ له. بعض المطارنةِ في ذلك الوقت كانوا مسَيَّسين جِدًّا. أمّا إغناطيوس، فلم يكن مسَيَّسًا قط. كان معروفًا كرجل علم متصوّف ومتفانٍ في سبيل الكنيسة.

بعد وفاة البطريرك، عُيِّن المطران الياس (قربان)، مطران طرابلس، بطريركًا قائمقامًا (وكيلاً بطريركيًا)، أي المطران المؤتمن على دعوة المجمع المقدّس للاجتماع بهدف انتخاب البطريرك الجديد. وقد اختير إغناطيوس لإلقاء عظة وداع البطريرك. نشأ توتُّرٌ في ذلك الحين، بين مجلس الملّة والمطران قربان. فقد اعتبر مجلس الملّة أنّه معني بالانتخاب، وأن عليه أن يرشّح ثلاثة مطارنة يُنتخب واحدٌ منهم. لم تكن الأمور منَظّمة في البطريركيّة. فعلى سبيل المثال، دار نقاش عند وفاة البطريرك الياس الرابع، حول كيفيّة دفنه، ومن سيدفع التكاليف، التي

كانت تُقَدّر، في ذلك الوقت، بأربعة آلاف ليرة سوريّة. ولغياب ميزانيّة لذلك، جاءت كلّ الترتيبات سريعة ومُرتَجَلة.

بدا إغناطيوس وكأنّه مرشَّح مجلس الملّة المُفضَّل، ولكن أصواتًا معارِضة بدأت تظهر، خاصة من قبل اليساريّين والميّالين إلى موسكو. موقف النظام السوريّ كان مشكِّكًا وغير محبِّذ لترشّح إغناطيوس لمنصب بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، خاصة أنه لم يكن في السابق متحمّسًا لتولّي إغناطيوس مطرانية اللاذقيّة. في ذلك الوقت، كان إغناطيوس يشكّ في أنّ النظام في سوريا يعتبر أن علاقاته بالجامعة الأميركية في بيروت، أو بالمجلس العالميّ للكنائس، تجعله مواليًا لواشنطن. كان النظام، حينذاك، على علاقة سيّئة بالأميركيّين، بينما كانت تربطه علاقات جيّدة بالسوفيات. صحيح أنّ المجمع المقدّس هيئة روحية مستقلّة، غير أن أعضاءه كانوا عُرضة لكثير من المداخلات. وفي اليوم نفسه الذي كان سيجتمع فيه المجمع لانتخاب البطريرك، اتّصل الدكتور يوسف الصايغ بالمطران إغناطيوس عند الساعة السابعة صباحًا، وطلب منه أن ينضمّ إليه في مهمّة صغيرة. والدكتور يوسف الصايغ، أرثوذكسيّ من وادي النصارى، هو طبيب مختصّ بأمراض القلب، والطبيب الشخصيّ للرئيس حافظ الأسد. وكان الدكتور صايغ قد لعب دور الوسيط لدى الرئيس الأسد لمصلحةِ مجيء المطران إغناطيوس إلى اللاذقية بعد نفي دام أربع سنوات. فأخذه إلى مكتب الرئيس الأسد. رحّب الرئيس بالمطران وعبّر له عن ثقته بشخصه، وبمواقفه الوطنيّة. وأكّد المطران للرئيس الأسد أنّ من سيتولّى إدارة البطريركيّة في دمشق، كائنًا من كان، فإنه سيتمسّك بالقيم الوطنيّة التي لطالما اتّصفت بها الطائفة الأرثوذكسيّة في سوريا.

الإنتِخَاب

الاجتماعات مع الرئيس الأسد هي اجتماعاتٌ يُضْرَبُ بِها المَثَل. فهي تستمرُّ لساعاتٍ، وينتقل الحديثُ خلالها من موضوع إلى آخر، كما أنها لا تخلو من روح الدعابة. وبينما كان الرئيس والمطران يتبادلان وجهات النظر في موضوعات مختلفة من الدين إلى السياسة، إلى الشؤون الداخليّة والعالميّة، كان المطارنة، أعضاء المجمع، ينتظرون بقلق عودة إغناطيوس من زيارته الغامضة. في نظر بعضهم، كان إغناطيوس هو المرشّح الأنسب. بعد لقائه الرئيس الأسد، انتشرت شائعةٌ مَفادُها أنّ مطراننا هو المرشّح المفضّل لدى الرئيس. وعندما وصل المطران إلى البطريركية بعد تأخير دام أربع ساعات، تضاعفت حظوظه في المجمع. أخبر المطران قربان إغناطيوس بأنه هو، قربان، ليس بالرجل المفضَّل لدى السوريّين من أجل أداء هذه المهمة. وأعرب فيليبس، مطران نيويورك، عن رغبته في البقاء في نيويورك، قائلاً: "لن أبدّل نيويورك بحيّ الخراب"، وهو اسم الحيّ الذي توجد فيه البطريركيّة في دمشق. أما المطران جورج خضر، فكان مرشَّحًا وبقي منافسًا قويًّا حتى النهاية. تشاور المجمع المقدّس في صالون البطريركيّة الرئيسيّ، ومن ثمّ انتقل إلى كاتدرائيّة المريميّة من أجل الانتخاب، وذلك حسب التقليد الذي يقضي بأن يتمَّ الانتخابُ بإلهام من الروح القدس. عندما انتهت العمليّة الانتخابيّة، أعلن مطران حماه أثناسيوس (سكاف) النّتيجة، ألا وهيَ انتخاب المطران إغناطيوس بطريركًا لأنطاكية وسائر المشرق، تحت اسم إغناطيوس الرابع.

تبع الانتخابَ قَرْعُ أجراسٍ قَويٌّ في كُلِّ الكنائس الأرثوذكسيّة في الشام. وهذا تقليد قديم يُعمَل به عند إعلان حَدَثٍ مهمٍّ وسعيد. اتّخذَ البطريركُ اسمَ اغناطيوس الرابع. ثلاثة من البطاركة الذين سبقوه اتّخذوا اسم إغناطيوس. أصل الكلمة لاتينيّ، ويعني النار، أي أنه حارٌ كالنار. عاش إغناطيوس الأوّل في القرن الأوّل للميلاد، واختار هذا الاسم؛ لأنه كان يحترق في حب الله، واستشهد في روما، وقد مزّقته الأُسُود في الكوليزيوم، وهو على قَيدِ الحياة. إغناطيوس الثاني عاش في القرن الرابع عشر. أما إغناطيوس الثالث، فتولّى بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق في حقبة من الصراعات الكنَسيّةِ في القرن السابع عشر.

إغناطيوس الرابع هو سابعُ بطريركٍ عربيٍّ على عرش أنطاكية، بعد عدد كبير من البطاركة اليونان، وذلك من العام ١٧٢٤ وحتى العام ١٨٩٩. وفي السنة ١٨٩٩، تَمَّ انتخاب البطريرك ملاتيوس الدوماني، واعتُبر هذا الاختيار انتصارًا للوعي العربيّ القوميّ، وتأكيدًا لِهُوِيّةٍ مختلفة عن الهويّة اليونانيّة، وربما متناقضة معها.

من المفيد تقديم بعض الإيضاحات حول أسباب إقامة بطريرك أنطاكية في دمشق وليس في أنطاكية نفسها. كانت أنطاكية مدينة مِحوَريّةً في تاريخ الكنيسة الأولى، مدينة مفعمة بالحياة في ظلّ الحكم البيزنطيّ. كانت محلَّ إقامة بطريرك أنطاكية إلى حين تدميرها على يد المماليك في العام ١٢٦٨. على أثره، رحل البطريرك ورعيّته إلى دمشق التي كانت تضمّ عددًا كبيرًا من الأرثوذكسيّين. بعد تقسيم السلطنة العثمانيّة، تَمَّ فَصْلُ أنطاكية عن سوريا، وإلحاقها بتركيا. ما زال في أنطاكية الآن عدد لا بأس به من الأرثوذكس، ولكنها فَقدَتْ مكانتَها المركزية بالنسبة إلى الكنيسة.

فور انتهاء العمليّة الانتخابيّة، بدأ البحث بأمور تتعلّق بإقامة البطريرك، وأخرى ذات طابع لوجستي مرتبطة بالكنيسة من جهة، وبالدولة من جهة أخرى. على البطريرك أن يستعدّ لتولّي مهمّتَين: الأُولى هي مهمّته كمطران لدمشق وجوارِها، والثانية هي تولّيه عرش أنطاكية بصفته الأوّل بين المتساوين، ورئاسة المجمع المقدّس، والرّعاية الرّوحيّة للكنيسة الأنطاكيّة في لبنان وسوريا، وكلّ المشرق والعالم، حيث هاجر الأنطاكيّون منذ زمن ليس ببعيد.

واحد من المطارنة الأكبر سنًا، المطران إغناطيوس (الفرزلي) سلّم باليَد عصا الرعاية للبطريرك الجديد، راعي الكنيسة الأرثوذكسيّة، قائلاً: "إنّ المجمع الأنطاكيّ المقدّس ومصفّ الإكليروس الموقّر وجماعة الشعب الأرثوذكسيّ المبارك قد انتخبوا غبطتَكم باتّفاقِ الرأي بطريركًا على مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق وذلك بإلهام الله. وهم يدعونكم بواسطة هذا الأخ الحقير إلى هذا الكرسيّ الأنطاكيّ المقدّس المؤسّس من هامتَي الرسل بطرس وبولس الإلهيَّين. فارتَقُوا، إذًا، يا صاحب الغبطة إليه، وزيِّنُوه عُمرًا مديدًا، كما زيَّنه أسلافُكم الرسل الأطهار، وإغناطيوس المتوشّح بالله، وإفسافيوس الكبير، وملاتيوس الشريف، وسائر الذين تقلّدوا زمام هذا الكرسيّ المقدّس بخوف الله.

الله معك يا مبارَكَ الرّبّ، تشجَّعْ وتَقَوَّ بالرَّبّ، وَكُنْ أمينًا في الخدمة التي اختارك لها الله إلهك. وارع بخوف الله وأمانةٍ ونشاطٍ الرّعيّةَ المفتداة بالدم الكريم في مراعي الخلاص، وأوردِها ينابيع الحياة الإلهية حافظًا الإيمان وساهرًا في الصلاة، مُحِبًّا لله وَلِشَعبِه المختار، ومُعَلِّمًا للجميع وصايا الربّ وحقوقَه، سائرًا مثالاً في كُلِّ عدل.

وَخُذْ بِيَمينِكَ هذه العصا القويمةَ، لِتَرعى رَعِيَّةَ المسيح. فَلْتَكُنْ لِلطّائِعِين عَونًا وَسَنَدًا، وَلِلمُتَمَرِّدِين وَالمُتَقَلِّبين عصا تربيةٍ وتأديب".

في كُلِّ مناسباتِ الكنيسةِ البارزة، وفي قُدّاس يوم الأحد الإلهيّ، سَيَتِمُّ ذِكرُ البطريرك كالآتي: "إغناطيوس الأب الأقدس الطوباويُّ والجزيلُ الاحترام، المُقامُ مِنَ الله بطريركًا على مدينة الله أنطاكية العظمى وسوريا وكيليكيا والعربيّة والبلاد الكرجيّة وما بين النهرين وسائر المشرق، أبو الأباء وراعي الرعاة ورئيس الرؤساء، ثالثَ عَشَرَ الرُّسُلِ القدّيسين الأطهار، أبونا ورئيسُ رُعاتِنا، فَلْتَكُنْ سِنُوه عديدة".

بالإضافة إلى الحاجة لكنائسَ وكهنةٍ ومرتّلين، اهتمّ البطريرك بوضع المدارس الابتدائيّة والثّانويّة في مختلف المطرانيّات. كانت هذه المدارس بحاجةٍ إلى أساتذةٍ أكفاءٍ، وإلى إعلاء مستوى التعليم، وإلى أبنيةٍ لائقة، وإلى إرشادٍ روحيٍّ ملائم. يتذكَّرُ البطريرك كل الإصلاحات التي أدخلها في مدرسة البلمند ومعهدها، وكان متلهّفًا للعمل مع كُلِّ المطارنة من أجل تحقيق الهدف نفسه. فاعتبر أن كُلَّ هذه المسائل يجب أن تُوضَعَ على جَدْوَل أعمال المجمع المقدّس.

أخذ البطريرك إغناطيوس الرابع مبادراتٍ مميَّزة، إذْ دعا النُّخَبَ الأرثوذكسيّةَ من كُلِّ المِهَن، بهدف حثّهم على الالتزام بالشؤون الكنسيّة. كما أخذ على عاتقه مهمّةَ تحديدِ وتنظيم الأملاكِ البطريركيّة، التي بقيت لأعوام طويلة مسرحًا للفوضى. ساعده في هذه المهمة الصعبة عدنان تقلا، الذي أمضى الكثير من الوقت مع المحامين وفي المحاكم من أجل تنظيم هذه الممتلكات ووضعها تحت سلطة البطريرك. كما وبُذِلَ جَهْد مماثل في ما يَخُصُّ كُلَّ الأديرةِ البطريركيّةِ

في لبنان وسوريا. وساعده في هذه المهمة غسّان تويني، ويوسف شقير، وسمير خيرالله. عندما استلم البطريرك إغناطيوس البطريركيّةَ، كان هناك ثلاثةُ أديرةٍ بطريركيّةٍ في سوريا (صيدنايا، معلولا، والحمَيرا)، ودَيرانِ في لبنان (البلمند، ومار الياس شويّا). بنى البطريرك، لاحقًا، دير مار جرجس، ودير القديس خريستوفوروس في صيدنايا، وديرًا ثالثًا في تلّ كوكب، في المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول، الذي أصبح بولس الرسول.

كما أَوْلى البطريركُ اهتمامًا خاصًّا بالمدارس الأرثوذكسيّة القائمة، فوسّع مدرسة الآسيّة، وعزّز دعائم مدرستَي داريا، والقدّيس يوحنا الدمشقيّ، كما أَسّس مدرسة جديدة في صيدنايا. والبطريرك معروف ببناء الكنائس وتشييد قاعات واسعة من أجل الاحتفالات الدينيّة والثقافيّة. فبنى كنيسة في محردة للدلالة على تعلّقه بعائلته وبمسقط رأسه. وقد دعيت باسم إغناطيوس الأنطاكي.

كبطريرك، كان هاجسه الأوّلُ دينيًّا. فقد زار مدينة أنطاكية، وأَوْلى كُلَّ الجماعة الأرثوذكسيّة الأنطاكيّة حول العالم اهتمامًا خاصًّا، وَعَمِلَ جاهدًا على توحيد المجمع المقدّس بعد عقود من الصِراعات الداخليّة.

كما أطلق مبادرةً تتعلّقُ بموضوع مَنْسِيٍّ في الكنيسة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة منذ مدة طويلة، ألا وهو الاعترافُ، سنة ١٩٩٣، بِقُدْسِيَّةِ الكاهنِ الشّهيد يوسف الدمشقيّ. كما توصّل إلى اتّفاقٍ مع الكنيسة السريانيّةِ الأرثوذكسيّة، يَسمحُ بموجبه بمشاركة الإكليروس في الخدمة الكنسية (ما عدا القدّاس الإلهي)، وأن تقوم كل كنيسة بخدمة أبناء الكنيسة الأخرى في المناطق التي لا وجود فيها لتواجد كنسي يسمح لهم بممارسة شعائرهم.

وفي العام ١٩٩٣، عُقِدَ في البلمند مؤتمرٌ حول الحوار المسيحيّ، توصّل إلى وثيقةٍ سمّيت (اتّفاقيّة البلمند) تُحدّدُ مجالات التّعاون بين الكاثوليك والأرثوذكس، كمقدّمة لحوار أوسع مع الكنائس الأخرى.

جَامِعَة البَلَمَند

كانت فكرة بناء جامعة تراود صاحب الغبطة دائمًا، ربما كفكرة بعيدة يجب تحقيقُها يومًا ما. وجد البطريرك أنّ الإرساليات الأجنبيّة في منتصف القرن التاسع عشر قد أسّست المدارس، وبنت المستشفيات، ومؤسّسات للتعليم العالي. كما بنت كليّة لتعليم النساء، كانت الأُولى من نوعها في المنطقة، وأسّست جامعةً جديدة ومتطوّرة هي "الكليّة السوريّة البروتستانتيّة"، التي كانت أيضًا الأُولى من نوعها في المنطقة.

كانت المؤسسات التقليديّةُ موجودة، لكنّها كانت منقطعةً تمامًا عن التعليم الحديث والليبراليّ، وعن المنهج العلميّ. عندما أسّس دانيال بليس "الكلّيّة السُّوريّة البروتستانتيّة" في العام ١٨٦٥، كان على يقين بأنّ الكاثوليك سيؤسّسون جامعةً كاثوليكيّة. وهكذا كان، إذْ بنى الكاثوليك الجامعة اليسوعيّة في سبعينيات القرن التاسع عشر. بعد تلك الحقبة، بدأت كُلُّ طائفةٍ ببناء جامعات خاصة بها. فلدى الموارنة جامعات عدّة تابعة لرهبنات مختلفة. وأنشأ السُّنَّةُ بمساعدة مصر، جامعة بيروت العربيّة. وأسّس الشّيعة الجامعة الإسلاميّة، في ضاحية بيروت الجنوبيّة.

لاحظ البطريرك أنّ الشّبابَ الأرثوذكسيّ يطلب العلم في جامعات الآخَرِين.

"فلماذا لا تكون لنا جامعتُنا، جامعة تحمل قِيَمَنا؟" فكّر البطريرك الذي شعر بأن الأرثوذكس كانوا دائمًا يتوقون إلى بناء مدارس، ومستشفيات، وَدُورِ عجزة، ولكن لم يفكّروا يومًا ببناء جامعة. عندما كان طالبًا في الجامعة الأميركيّة، أدرك مدى أهميّة مؤسَّسات التعليم العالي بالنسبة إلى الأجيال المستقبليّة. ما قام به البروتستانت، والكاثوليك والمسلمون، جديرٌ بأن يُقلَّد، مع العلم بأنَّ لكل من هذه المذاهب والديانات ميّزاتها الخاصة. لم يكن لديه أدنى شكّ بما يَخُصُّ مميّزات الجامعة التي سوف تؤسّسها البطريركيّة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة. كان قد قام بالخطوة الأولى باتّجاه التعليم العالي، عندما رفع مستوى التعليم في معهد اللاهوت، وكان لا يزال مطرانًا في السبعينيات، محوّلاً إياه من مؤسّسة للتعليم الثانوي، إلى مؤسسة جامعيّة، تعطي إجازة في التعليم العالي.

شخصية إغناطيوس الرابع الروحانيّةُ، وقلّة احتياجاته الدُّنيويّة، كانت مَحَطَّ إعجابِ الجميع، فتلقّى دعم العديد من المؤمنين بالقضايا التي تبنّاها. فإذا ما طلب الدّعم الماليّ، كان الجميع على يقين بأنّ كلّ التبرّعات التي ستدفع، ستكرّس للمشروع المَنْوي إقامته. في الثمانينيات، اجتمع البطريرك، في باريس ولندن وجنيف ونيقوسيا، بقياديِّين لبنانيّين، وسوريّين، وفلسطينيّين من أصدقائه. كان لبنان في ذلك الحين، ضحية حرب داخليّةٍ ضَرُوس، ما فَرَضَ عَقْدَ هذه الاجتماعات في الخارج. مشروعُه المفضَّلُ والأعظم هو بناء جامعة. فاحتفظ به لنفسه في البداية، اعتقادًا منه أنّه لن يؤخذ على مَحْمَلِ الجِدّ، خاصة وأنَّ ظروف الحرب في لبنان جعلت من فكرة بناء جامعة، حُلمًا صعب التحقيق.

في الثمانينيات، طلب أصدقاءُ البطريرك منه بإلحاح أن يكون له مقرّ إقامةٍ رسميٌّ في بيروت، أو ضواحيها، على غرار كُلِّ القادةِ الدّينيّين في المجتمع

اللبنانيّ المتنوّع الإنتماءات المذهبية. اعتقد البطريرك أنّ ذلك سيُعتبَرُ نوعًا من الاعتداد بالنفس، لأنّ باستطاعته عقد الاجتماعات في مطرانيّة بيروت، أو في أيٍّ من الأديار البطريركيّة، كدير سيّدة البلمند، ودير مار الياس شويّا في ضهور الشوير. إلاّ أن البلمند، نقطة ضعف البطريرك، احتفظ بمكانة خاصة في قلبه. وكان قد عمل على إنشاء نواة هناك.

مطرانيّة جبل لبنان تملك أرضًا في المنصوريّة، إحدى ضواحي بيروت، وقد ظنّ كُثُرٌ أنّ هذا هو المكان المناسب لبناء جامعة. بيروت وضواحيها هي المنطقة التي تضم أكثر جامعات لبنان. وكما المسافر في قصيدة روبرت فروست "الطريق الذي لم يُؤخَذ"، نظر البطريرك إلى "الأوّل في (المنصورية) إلى أبعد ما يستطيع .... ثم أخذ الثاني، بكل بساطة، بحجة أنه غني بالعشب، ويحتاج إلى أن يُداس". هكذا نظر البطريرك إلى المنصوريّة، واختار البلمند. بالنسبة إلى البطريرك، كان للبلمند الحجّة الأقوى، كان مَكْسُوًّا بالعشب، ويحتاج إلى من يَدُوسُ أرضَه، وكان بعيدًا عن بيروت، وموجودًا في منطقة من لبنان مهمَلة نسبيًّا. المنصوريّة في جوار بيروت العاصمة التي تضّم كُلَّ الجامعات تقريبًا. فهي لم تكن بحاجة ماسّة إلى جامعة إضافية.

أُسّست الجامعات في بيروت، ومع الوقت أصبح لديها فروع في مناطق لبنانيّة أخرى. ما كان يفكّر به البطريرك، هو جامعة تُبنى في منطقة ريفية ثُمَّ تمتدُّ إلى بيروت. كان يطمح إلى قلب المقاييس. إذا كان أهل الكورة طوالَ قرنٍ من الزمن قد ذهبوا يطلبون العلم في بيروت، فهو يريد الآن من بيروت أن تأتي إلى الكورة، وأن تصير الكورة مستقلّة بما يخصّ التعليم الجامعيّ.

ليست جامعةُ البلمند أوّلَ جامعة نشأت في قريةٍ معزولةٍ وبعيدة نسبيًّا. لقد قامت بذلك جامعة أوكسفورد منذ عهد بعيد. وهذا مثال يُحتذى به.

ينصّ القانون اللبنانيّ، الذي يجيز فتح جامعة، على البدء بثلاث كليات للحصول على مرسوم الترخيص. ومن ثم تستطيع أن تتقدّم بطلب إلى الحكومة من أجل فتح كلّيّاتٍ إضافيّة، حسب قدرة استيعاب الجامعة، وحاجة البلاد. من بين الكلّيات الثلاث التي كان يحتاجها البطريرك للحصول على المرسوم، كان لديه اثنتان، الأولى هي معهد القدّيس يوحنّا الدمشقي في البلمند، والثانية هي الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة في بيروت.

كان رجلُ الفكر والفنّ الأرثوذكسيُّ، الأستاذ ألكسي بطرس، قد أسّس الأكاديميّة في أوائل الأربعينيات. ولكن وفاته جعلت الأكاديميّةَ في وَضْع قانونيٍّ حَرِجٍ بالنسبة إلى الوَرَثة، أي عائلة بطرس البيروتية. يعود فضلُ المحافظة على الأكاديميّة في ظِلِّ ظُروفِ الحرب الخطيرة، إلى مساعد السيّد بطرس وسكرتيره، الأستاذ جورج حدّاد. كانت الأكاديميّة تمنح شهادات في الهندسة المعماريّة، والفنون الجميلة، والتصميم الفنّيّ، والدراسات السمعيّة-البصريّة. أما معهد اللاهوت، فكان هو أيضًا مؤسسة جامعيّةً تمنح إجازات، منذ أن كان بإدارة المطران إغناطيوس. لاحظ البطريرك أن المعهد ينمو ببطء، تدريجيًا وبمفرده، إذ كان على تلّته معزولاً عن كُلِّ تفاعُلٍ ثقافيٍّ أو فكريّ مع محيطه. لا شَكَّ في أنّ الجامعة سوف تعطيه العمق والأبعادَ المختلفة، وبالمقابل سيعطي المعهد روحًا للجامعة، ومسارًا مسيحيًّا مستقيمًا.

لا يمكن تصوّر جامعة من دون كليّةٍ للآداب والعلوم الإنسانيّة، كلّيّة تدفع

العقل نحو التفكير، والمساءلة، والحلم، وتوسيع الآفاق. بالنسبة إلى بطريركنا، العقل جزء لا يتجزّأ من الروح، إنه مرشدها، ولكنه بحاجة دائمة إلى أن يتغذّى من توق الإنسان إلى الحقيقة، والعدالة، والجمال. وهذه من خصائص كلية الآداب. وهكذا، وبأسلوبه الخاص، أعلن البطريرك إنشاء كليّةٍ للآداب والعلوم الإنسانيّة، وعيّن الدكتور جورج نحاس، مدير ثانوية البلمند آنذاك، عميدًا لها.

عندما أصبح عنده ثلاث كلّيات، بدأ بمعاملات الطلب الرسميّ من أجل الحصول على ترخيص من الحكومة اللبنانيّة يخوِّلُه إنشاء جامعة. لم يكن الأمر سهلاً كما توقّع البطريرك. فقد ظلّ هذا الطلب متواريًا في خبايا مكاتب البيروقراطية اللبنانية لمدة طويلة. كان يلاحق طلبه من مكتب إلى آخر، وفي كُلِّ مكتب كانوا يَقصّون عليه قِصّةً مختلفة. فبدأت الشائعات تنهال عليه، فقِيلَ له إنّ الطَّلَبَ قد رُفض، لأنّ هذا المذهب أو ذاك لا يريد أن يكون للأرثوذكس جامعة، أو لأنّ هذا الزعيم أو ذاك يريد وعدًا خاصًّا من البطريرك أنّه سيكون دائمًا مَدِينًا له. لم يكن البطريرك شخصًا يستسلم بسهولة للشائعات، فتابع ملاحقة طلبه بإلحاح.

كان لبنان حينذاك، في حرب داخلية وفي أجواء مذهبية متشعّبة. لا يمكن لمعاملة أن تنجز إلا إذا تبعت المسار المذهبيّ. يجب أن يكون هناك شخص من الطائفة نفسها يسهّل الأمور، شخصيّة قياديّة في الساحة السياسيّة اللبنانيّة، سياسيّ يستطيع التماسَ طريقه في متاهات الرُّوتين الإداريّ. هذا الرجل، كان الدكتور عبدالله الرّاسي، وهو نائب من عكّار، في شمال لبنان.

أوكل إليه البطريركُ الملفَّ، آملاً إنشاء أوّل جامعة أرثوذكسيّة، بل أكثر من ذلك، إنشاءها في شمال لبنان.

من حُسْنِ الحَظّ أيضًا أن يكون رئيسَ الجمهوريّة في الثمانينيات، الشيخُ أمينُ الجميّل، رَجُلٌ عالي الثّقافة، قارئٌ نَهِمٌ وواسعُ الاطّلاع، وَضَليعٌ في أمور الموسيقى والفَنّ. بالنّسبة إليه، إنشاء جامعةٍ جديدةٍ كان خُطوةً جيّدةً في بناء لبنان، ومفخرةً لِعَهدِه. كان الاحترامُ والإعجابُ يَسُودانِ العلاقة بين البطريرك والرئيس الجميّل. إضافة إلى أنّه كان لدى الرئيس ضعف تجاه الأرثوذكس؛ لأنّ اثنَين من أَقْرَبِ مستشاريه كانا أرثوذكسيَّين. بدَعم الرّئيسِ الجميّل، وتفهُّم رئيس الوزراء، سليم الحص، أَثْمَرَتْ جُهُودُ الدّكتور الرّاسي، فصَدَرَ في الرّابع مِن حزيران ١٩٨٨ مرسومٌ يَسمحُ للبطريركيّةِ الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة بإنشاءِ جامعةٍ في البلمند.

الآنَ، وبصفته البطريَركَ الأوّلَ والوحيدَ، في سِلسلةِ البطاركةِ المئة والخمسةِ والسّتّين الذين تعاقبوا على عَرشِ أنطاكية، الّذي أنشأَ جامِعَةً، شعر البطريركُ إغناطيوسُ الرّابع أنّه حقَّقَ حُلمَه، وحوّلَ هاجِسَه إلى حقيقة. صارتِ الفكرةُ واقعًا مشروعًا، وأصبح لديه ثلاثُ كُلِّيّات، اثنتان على تلّة البلمند، والثّالثة، أي الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة، في بيروت. كانت الجامعة بحاجة إلى مجلس أمناء. عيّن البطريرك أعضاء المجلس. وكي تستطيع الجامعة أن تعمل كجسم موحَّد، كانت بحاجة إلى رئيس. وبما أنّ البطريركَ مثال الرَجُل الشرقي، فهو يتّكل كثيرًا على علاقاته الشخصيّة. كان يبحث عن شخصٍ يعرفُه ويحترمُه، شخصٍ يَثِقُ بِهِ لِيُسَلِّمَهُ إنجازَه. فوقع اختيارُه على جورج

طعمه. كان الدكتور جورج طعمه متقاعدًا من مشواره الطويل كأستاذ للفلسفة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وكسفير لسوريا في واشنطن، وكان، فوق كل ذلك، أرثوذكسيًّا ناشطًا. ومع أنّه لم يَكُنْ يَنْعَمُ بصحّةٍ جيّدة، قَبِلَ الأمانةَ وَعَمِلَ بإخلاصٍ وتَفانٍ لِمُدّةِ سنتَين، من العام ١٩٨٨ وحتّى العام ١٩٩٠، واستقالَ مِن بَعدِها لأسبابٍ صِحّيّة. بَحَثَ البطريركُ مُجَدَّدًا عن رئيسٍ للجامعة من بين أصدقائه، فلم يكن هناك أقربُ من الأستاذ غسّان تويني إليه. تعود صداقةُ الرَّجُلَين إلى أيّام الدّراسةِ في مدرسة الإنترناشنال كولدج، ثُمَّ في الجامعة الأميركيّة في بيروت. كان البطريرك يميّز غسانًا من غيره ويعتبرُه أفضلَ مستشارٍ شخصيٍّ مقرَّبٍ منه، وغسّان من جهته أحبَّ البطريركَ واحترمَه. الرَّوابطُ الّتي تَجْمَعُ بين الاثنين كانت دائمًا مميَّزة. ولكنَّ آخِرَ ما كان يَحتاجُه غسّان تويني هو تولّي رئاسة جامعة. كان تويني قد أثبت أنّه أفضلُ صحافيٍّ وناشرٍ في العالَم العَرَبِيّ، وأنه رَجُلُ سياسةٍ لبنانيٌّ متمرِّسٌ منذ أوائل الخمسينيات، ومِنَ أكثرِ الرِّجال انشغالاً في المنطقة. ولكن عندما طلب منه البطريرك أن يترأس جامعةَ البلمند، لم يَتَوانَ لحظة عن القَبُول، ليس فقط بسبب علاقتِه الوطيدةِ بالبطريرك، بل لأنّه كان يريد أن يحقِّقَ بعضًا من اهتماماته في التعليم، نظرًا لدورِه القِيادِيّ في هذا المجال، منذ أن كان وزيرًا للتربية في عهد الرئيس سليمان فرنجية. بعد أن قام بمهماتَه كرئيسٍ لجامعةِ البلمند لِمُدَّةِ ثلاثِ سنوات، وبعد أن أعطى الجامعةَ الدَّعمَ الّذي كانتْ تحتاجُه سَواءٌ على مستوى الوطن أم على مستوى المنطقة، طلب تويني من صديقه العزيز إعفاءه من هذه المهمّة. وبدأ البطريرك وغسّان تويني، يبحثان عن رئيسٍ للجامعة باستطاعته أن يتفرّغ لأداء هذه المهمّة. خلال مدّة رئاسته لجامعة البلمند، لم يتخلّ، أو بالأحرى لم يستطع أن يتخلّى، غسان تويني عن أدواره الأخرى

كَرَجُلٍ سِياسِيٍّ، وصحافيٍّ وناشِرٍ، وكشخصيّةٍ بارزةٍ في ساعاتِ العُسْرِ واليُسْرِ الّتي كانت تتحكّمُ في سياسة المنطقة. كان شعور الرَّجُلَين أن الجامعة تحتاج الآن إلى أكاديميٍّ. وهكذا وصلْتُ إلى الجامعة، من دون مقدّمات. كنت أعرف الكثيرَ عن البطريركِ منذ زمنٍ بعيد، وكنتُ مِنَ المعجَبين به كبطريركٍ، وكَمُفَكِّرٍ، وَكَرَجُلٍ مُخْلِصٍ لِوَطَنِهِ، وَقَبْلَ كُلِّ شيء كَإنسانٍ مُحِبٍّ لِلخَير. عندما كان مطرانًا في البلمند، كانت عائلتي مقرّبةً منه. ووالدِي، الذي لم يكن إجمالاً ميّالاً إلى رجال الدين، كان يَكُنُّ له احترامًا خاصًا، ويَمدحُه باستمرار، وهذا ما كان نادرًا بالنسبة إلى والدي. كان ينعتُه بِرَجُلِ الكنيسة الحقيقيّ.

كانت مفاجأةً عندما طلب منّي البطريرك، وصديقي عصام فارس، وغسّان تويني أن أتولّى رئاسة جامعة البلمند. لقد شرّفني هذا الطلب، وقَبِلْتُ العرضَ فَورًا. وهكذا منذ أواخر سنة ١٩٩٣، وأنا أساعد هذا المؤسِّسَ التّاريخيّ، في ترجمةِ أحلامِهِ إلى حقيقة. إبّانَ كتابة هذه السيرة (٢٠٠٩)، كان عددُ الكلّيّات في الجامعة قد ازداد، فَمِنْ ثَلاثِ كلّيّاتٍ صار لدينا تسع، ومِن أصلِ مَبنَيَين وَنِصف، صار لدينا خمسةٌ وثلاثون مبنىً. أمّا المدينة الجامعيّةُ التي كانت تشكّل ٢٠،٠٠٠م٢، فقد صارت الآن ممتدّةً على مساحة ٥٠٠،٠٠٠م٢، وتوسّعها البيروتي يسير على قدم وساق. بضع المئاتِ مِن الطُّلاّب الذين تشجّعوا وتسجّلوا في هذه الجامعة الجديدة في العام ١٩٨٨، أصبح عددهم سنة ٢٠٠٩ يزيد على أربعة آلاف. والجامعة، التي لم تكن تُمَيَّز من دير البلمند ذِي الشهرة التاريخيّة، أصبحت اليوم واحدةً من أهمِّ الجامعات الخاصّة في لبنان والمنطقة ما يستوجبُ قريبًا كتابة تاريخها في كتابٍ مُستقلّ، كإنجازٍ رائعٍ للحالِمِ الشّابّ، الآتي مِن محردة، الضاحية المتواضعة لمدينة حماه.

الفَصل السّابع

مِن أقوالِ غِبْطَتِه

في الفصول الماضية، كنتُ أنا مَن يتكلّم. لقد جمعتُ المعلومات عن حياة البطريرك، وتتبّعتُ مَسارَهُ الإكليريكي، ودراستَه، وإنجازاتِه. في هذا الفصل، البطريرك هو الذي سيتكلّم عن مواضيعَ وجدْتُها مناسبةً لهذا الكتاب.

قُمتُ بانتقاءِ هذه المختارات بهدف تقديم معلوماتٍ مفيدةٍ للقارئ. بعضُ هذه المختاراتِ موجودٌ في كتابِ "مواقف وأقوال"، إلاّ أنّني وجدتُ مِنَ المناسب أن أُورِدَها في هذا الكَتاب. بطريركيّتُه هي بِحدِّ ذاتِها بابٌ للأرثوذكسيّة، وأفكارُه وتفسيراتُه للنّصوص هي بمنزلة مُرشِدٍ لنا في إيمانِنا كأنطاكيِّين أرثوذكسيين.

سأتركُه يتحدّث إليكم مباشرة.

وسأبدأ بموضوع محبَّبٍ إليه،

مَنْ نحْنُ؟

"نحن أنطاكيّون، ذُرّيّةُ الكنيسةِ الأصليةِ الّتي أسَّسَها القدّيسانِ بطرس

وبولس. نحن كنيسةُ الشَّرق، شرقيّون مئة بالمئة، نحن هنا في الشرق في بيتِنا. آمالُنا هي آمالُ منطقتِنا، ومأساتُها مأساتُنا، إنْ كان هناك مِنْ مأساة. نحن المسيحيّون الأصليّون. الآخَرُونَ أتَوا كَضُيُوفٍ لنا. نحن نُرَحِّبُ بِهِم. نَعمَلُ مَعَهُم، ولكنّنا لا ننسى أصالتَنا، وفَرْدِيَّتَنا. من المؤكَّد أنّ الماضي كان قاسيًا علينا. أتت الامبراطوريّاتُ، توعّدَتْ وهدّدَتْ، ثُمَّ رحلَتْ. ونحن بَقِينا ثابِتِين بإيمانِنا، متواضعين، ولكن فخورين، وجريئين بقناعاتنا.

إنّ رُوحَ أنطاكية هي رُوحٌ رَسُولِيّة، تَخْتَمِرُ كالخَمِيرَةِ في العجين. نحن خميرةُ هذه الأرض، نحن نشكّل النوعية، والقيمة، نحن لسنا عددًا، لسنا كمّيات.

إنّ رُوحَ أنطاكية تَنْفُذُ إلى الإنسان بصفتِه حامِلَ الحقيقةِ الإلهيّة، وَمَوضِعَ إقامةِ الحُبِّ اللامَحدُودِ واللامَشْرُوط.

نحن مسيحيّون عَرَبٌ. كُنّا هنا في فلسطين، وسوريا، ولبنان، قبل الإسلام بوقتٍ طويل. عندما احتَلَّ العَرَبُ الحاملون رسالةَ الإسلام هذه الأرض، تعاونّا مَعَهُم، وساهَمْنا كثيرًا في بناء الحضارة العربيّة الإسلامية التي ازدَهَرَتْ في العصرِ الأُمَوِيّ (٦٥٠-٧٥٠)، والعصرِ العبّاسيّ (٧٥٠-١٢٥٨). كنّا الوسيطَ الفِكرِيَّ والعِلْمِيَّ بينَهم وبين العالَمِ الإغريقيّ. لكنّنا لم نَكُنْ فقط وُسَطاء، بل كانت لنا مساهَماتُنا في شَتّى الميادين.

اللغة العربيّة لغةُ الليتورجيا عندنا منذ قرون. وقد لعبنا دورًا في التاريخ العربيّ الكلاسيكيّ، كما قُمْنا بِدَورٍ بارزٍ في حركة الإصلاح العربيّ التي بدأت في القرن التاسع عشر، على أثر التنظيمات العثمانيّة[1].

المسيح مِن هُنا، ونحنُ مَسيحيّون عَرَب

"وُلِدَ المسيحُ في بيت لحم في فلسطين. الرُّسُلُ مِن هُنا. أبناءُ شَعبِنا هم مَن كَتَب الأناجيل. المسيحُ واحدٌ مِنّا. ألوانُه كألوانِنا، وهو قد تكلّم لغةَ أجدادِنا. عاش في مُدُنِنا وَقُرانا. نحن الشُّهودُ الأوائلُ للمسيحيّة. نحن في الكنيسة الأرثوذكسيّة أهلُ الأناجيل، والرُّسُلِ، والأنبياء. ونحن نتمسّكُ بِهُوِيَّتِنا الشّرقيّة.

كمسيحيّين عرب، عندنا دَورٌ لا يستطيع أَحَدٌ سِوانا أن يَلْعَبَه. نحن نُفَسِّرُ المسيحيَّةَ لِلعرب، والإسلامَ إلى العالَم. نحن طبعًا نُعاني مِن المشاكل بسبب التدخّلات الأجنبيّة، وخاصة تدخّلات الغَرْبِ المسيحيّ في شُؤون العالَم العَرَبيّ. بعض الأخوة العرب لا يميّزون بين المسيحيّة الغَرْبيّة، والمسيحيّة العَرَبيّة، وغالبًا ما نَقَعُ ضَحِيّةَ سُوءِ التّفاهُم الخطير هذا. يَنسى إخْوَتُنا المُسلِمُون أنّنا هُنا منذ الأَزَل، على الأقلّ مُنذ ستّمائة سَنةٍ قبلَهُم. كثيرًا ما تُنسى هذه الحقيقة التاريخيّة. وهي غيرُ معروفةٍ مِن قِبَلِ عامّةِ الشّعب الذي ليس لديه أدنى بُعدٍ تاريخيٍّ جِدّيّ.

أمّا بالنسبةِ للإخوةِ المسيحيّين في الغَرب، فأقول: عَلَيكُم أن تحاولوا فَهمَنا. إذا فَهِمتُمونا كالمسيحيّين الأصليّين، عندها تستطيعون فَهْمَ أنفُسِكم. المسيحيّون الغربيّون لا يُولُون بيتَ لحم، والنّاصرةَ، والقُدْسَ، وسوريا، ولبنان، الاهتمامَ الكافي. هم يَنسَون أنّ المسيحَ أتى من فلسطين. من بين كُلِّ مُؤسِّسي الديانات، هو الوحيد الذي علّم في القدس، ومات في القدس، وقام من بين الأموات في القدس. ومن هنا انتشرت تعاليمه في العالم أجمع. ربمّا كان العالَمُ مُخلِصًا، إلاّ أنّه لم يَكُنْ أصيلاً. أنتم في الغرب، تعتمدون على العقل، وقد أحرزتم تقدّمًا هامًّا في العلوم والتكنولوجيا، وفي المؤسسات الاجتماعيّة. نحن في الشّرق، عشنا في

الصّمت، في الصّلاة، وفي الإخلاص. نحن، مسيحيِّي الشّرق، استطعنا أن نكتشف ما وراء القوّة الوحشيّة التي مارستموها على الشعوب الشرقيّة، استطعنا أن نكتشف في الغربِ حُبَّ العقل، والمعرفة، والعلوم، والتكنولوجيا، والأبحاث، والتجارب التي ساهمت كثيرًا في تأمين خير ورفاهة الجنس البشريّ".

نحنُ والغَرْب

"نحن نحترم الغرب من أجل الإسهامات التي ذكرناها، ولكننا نلومه على مواقفه منّا وتصرّفاته تجاهنا في القرون الماضية. عوضًا من أن يساعدنا الغرب على تجديد أنفسنا، حاول أن يغيّر إيماننا. لقد استقبَلْنا الإرساليّاتِ والأَمَلُ مِلْءُ قُلُوبِنا، لكنّهم تجاهلوا هُوِيَّتَنا، ورفضوا الاعتراف بكنيستنا.

بالرغم من ذلك، علينا أن نتوصّل إلى المصالحة. دعونا نبدأ بما هو مشترك بيننا، العقيدة المعلنة في المجامع السّبعةِ المقدَّسة. هذه العقيدة كُتِبَتْ قَبْلَ الانشقاق بين الشّرق والغَرب. يجب أن نتحرّك باتجاه بعضنا البعض. الأمور التي تشغلنا الآن بالغة الأهمية، وعلينا ان نحلّها بالعودة إلى روحيّةِ المجامعِ السَّبعة.

قَدَرُنا كمسيحيِّي العالَم العربيّ أنْ نَشْهَدَ للمسيح، وأن نُضِيءَ شمعةً قد تُنِيرُ دَربَ الغَربِ المادي. بهذه الرُّوحِيَّة، نستَنكِرُ مأساةَ القُدس. القدس هي قلب الإنسانيّة. وما يُؤذِي القدسَ، يُؤذِي كُلَّ كائنٍ بَشَرِيّ على الكُرَةِ الأرضيّة. وَجْهُ القُدْسِ رُوحِيٌّ، دِينِيٌّ، إنسانيّ، ويعني كُلَّ إنسان، ونحن نَرفُضُ أن تُعامَل القدسُ كَكُرَةٍ سياسيّةٍ في لُعبةٍ مَحَلّيّةٍ نَزَويّة. إنّ رُوحَ القدس يتجاوزُ المَدّ والجَزْرَ التاريخِيَّين. نحن نرفضُ بِشِدَّةٍ تَهوِيدَ القُدْسِ، وَتَشْوِيهَ وَجْهِها الإسلاميّ والمسيحيّ. إنّ

مستقبلَ القُدْسِ هو مستقبلُ الشّعبِ الفلسطينيّ والمسيحيّين العَرَبِ الّذِين يتشاركون وإيّاهُم بِماضٍ طَويلٍ، ومستقبَلٍ لامَحدُود".

القُدسُ لَنَا

"بالنسبة إلينا، القُدْسُ هي رَمزُ انعتاقِ الإنسان من القَمع والصَّلب. مِن بينِ كُلِّ شُعوبِ العالَم، نحن أكثرُ الشُّعوبِ انتماءً إلى القُدس. في المعنى الأعمق للكَلمة، القُدْسُ لنا، ولكِنّها تَرزَحُ تحتَ الاحتلالِ الإسرائيليّ، وبسبب الكبت، تضاءل عدد مسيحيّي القدس كثيرًا.

المأساة التي حلّت بالقدس، حلّت بفلسطينَ كَكُلّ تحت الاحتلال الصهيونيّ. وكمسيحيّين أرثوذكس، نحن لا نَشهدُ فقط مأساتَنا، ولكنّنا نَشهدُ مأساةَ إخوانِنا المسلمين أيضًا في فلسطين. أَقَلُّ ما باستطاعتنا أن نفعله، هو الشهادة للحَقّ وللعدل، القِيمَتَينِ العالَمِيَّتَينِ اللَّتَينِ انتُهِكَتا بِعُنفٍ في فلسطين".

وبالنسبة إلى نظرةِ البطريرك للدّيانة، والمسيح، والآخَر، كان لديه الكثير ليقوله في عظاته.

اللهُ لِلجَميع

"لا يستطيع أن يَستَحوذَ شعبٌ واحدٌ على الله. الله هو خالق الجميع، أَبُو الجميع، ومخلِّص الجميع. أن تدَّعوا أنتم اليهود أنّكم وحدَكم أبناءُ إبراهيم، فهذا خطأ. لو أراد الله "لصنع من الحجارة أولادًا لإبراهيم". كان يريد أن

يحوّلهم من أتباع للناموس، من متمسّكين بحرفيّته، إلى شعب يشعر بوجود الآخرين. كان يريدهم أن يحترموا الإنسان الحيّ، الكائنَ البَشَريَّ الحقيقيَّ الّذي أراده الله على صورته.

خلقَ الله الإنسانَ لِيعيشَ مِلْءَ إنسانيّتِه. عليه أن يفعل ذلك، بتعقّل، وألاّ يسيء استعمالَ عطيّةِ الله.

لقد جاء المسيحُ إلى الأرض مِن عرشِه في الجنّة، كإنسان، كواحد من بين البشر. فَعَلَ ذلك لِيُرِيَهُمُ الفَرْقَ بين الكَينُونةِ، وقراءة الكتب. إنّ إنسانيّةَ الشّخص، وحياتَه وقَدَره، كانَت همَّه الأوّل. هنا يَكمُنُ الفَرقُ بين الدّيانةِ والفلسفة. أنت تعيشُ الأُولى، وتتحدّث عن الثانية.

إنّها الحقيقة، المسيح تكلّمَ إلى اليهود. هو جاء من أجل كُلِّ الشعوب، كي يُحوّلَ الإيمان المرتبط بكلماتٍ مدوَّنةٍ في كُتُبٍ إلى الحياةِ الحقيقيّةِ ووقائعِها. جاء لِيَنشُرَ كلمةَ الله، ليس فقط لشعبٍ واحد، أو منطقةٍ واحدة، بل إلى كُلِّ العالم.

أساسيٌّ للدّياناتِ هُوَ يومُ الدّينونة. هذا اليوم صُنع كي يكون الإنسان مسؤولاً عن أعماله أمام الله. يُحكَمُ على الإنسان بما فعل أو لم يفعل لأخيه في الإنسانيّة، للآخَر. في يوم الدّينونة، ستُسأَلُ "ماذا فَعَلْتَ لأخيكَ؟ هل رأيتَه مُحتاجًا، هل ساعدتَهُ؟" الأَهَمُّ في الدّيانةِ هُوَ الإنسانُ بِكُلِّيَّتِه.

إنّه لَمِنَ المُهِمِّ أن نتذكَّرَ أنَّ المسيحَ تكلّمَ عن الشخص، وليس عن الذَّكَرِ والأُنثى. الإنسانُ واحدٌ بالنسبة إليه. لم يأخُذْ أيَّ موقفٍ من أُمِّه، أو مِنَ

النّساءِ اللواتي انضَمَمْنَ إلى رعيّته. لقد باركَ صُورةَ خَلْقِ الإنسان. كان هناك أناسٌ يؤمنون بإلهٍ للخير وإلهٍ للشّرّ. ولكنَّ الشرَّ هُوَ غِيابُ الخَير. وقد خُلقَ العالَمُ كي يَزِيدَ فيه الخير".

العَهدُ الجَديد

"في العهد الجديد، تكلّمَ الرُّسُلُ بِطُرُقٍ مختلفة، كُلُّ واحدٍ منهم كان يشدّدُ على مواضيعَ معيَّنة. متّى، على سبيل المثال، كان يهوديًّا، وشدّد على ما توجّه به المسيحُ لليهود. لوقا كان طبيبًا، ومراقبًا دقيقًا للتفاصيل، ففصّل بإسهاب ووضوح نَسَبَ السيّدِ المسيح ونَسَبَ والدتِه. أمّا مرقس فيبدو أنّه اتّكلَ كُلّيًّا على معلومات القدّيس بولس. ومن الممكن أن يكون يوحنّا من أصلٍ يونانيّ. عندما كَتَبَ "في البَدْءِ كان الكلمة، والكلمةُ كان عند الله"، كان يَرجعُ إلى مفهوم إغريقيّ، وليس إلى مفهوم سامِيّ. أمّا التّجسّد، فيجب أن يُقبَلَ مباشرةً وببساطة. أنت تقول إنّ هذه المرأةَ أو تلك وَلدت بنتًا أو صبيًّا. كذلك نقول إنّ العذراءَ وَلَدَتِ المسيح. يجبُ أن نَتعاطى مَعَهُ كَحَدَثٍ، وألاّ نتمادى بفَلسفته. أخذ المسيحُ هَيئةَ إنسان، لأنّه وُلِدَ مِن رَحِم امرأة. المسيحيّون يؤمنون بالله كحقيقة مسلَّم بها. الإيمان مَبنِيٌّ على التّسلَيم. ظهرَ المسيحُ بينهم، فشفى المريض، وتكلّم باسم الآب، وكان هو الله "تعالوا وانظروا".

المَسيح إنسَانٌ وَإله

"عند استحالتِه إنسانًا، كان المسيح إنسانًا مئة بالمئة، مثلي ومثلكم. ولكن

بعكسنا كان روحًا مئة بالمئة. وُلد من مريم بفضل التدخُّل الإلهيّ العجائبيّ. وفي هذا المعنى لا يستطيع الله أن يكون إنسانًا، والإنسان أن يكون إلهًا. باستحالتِه إنسانًا، بمَوتِهِ على الصَّليب، وبقيامتِهِ مِن بينِ الأموات، جَعَلَ المسيحُ المادّةَ مقدَّسةً، بل جَعَلَ الخليقةَ كلَّها مقدَّسة. هو لم يتغلّبْ فقط على الموت، بل أعطى الكينونةَ رُوحًا، فرَحًا، ورَجاءً. إنّ القيامةَ هي رُكنٌ أساسيٌّ ورَهيبٌ مِن أركانِ الإيمان المسيحيّ.

أتى المسيحُ إلى العالَم وعاشَ بينَنا. كان واحداً منّا. في الغرب، يصوّرونه كإيطاليّ، أو فرنسيّ، أوَ إنكليزيّ. ليس هو بالمسيح التاريخيّ الذي يشبهنا، والذي لا يمكن تمييزه عنّا. أتى برسالةٍ لنا وللعالم. علّم بواسطة أمثال، تكلّم مع الناس، وعلّم تلاميذَه كيف ينشرون هذه الرسالة بعد صعوده إلى السماء.

في سِرِّ التجسُّد، الإنسان-الإله مات وقام من بين الأموات. كان للرّبِّ طبيعةٌ كطبيعتِنا. بالإضافة إلى طبيعته الإلهيّة كان إنسانًا مثلنا. كان تَعِبًا، أَكَلَ، وَشَرِبَ، وَمَشى، وتألّمَ، ومات. ماتَ حقيقةً كما نَمُوتُ نحن. مات لِمُدَّةِ ثلاثةِ أيّام. لكنّه قامَ مِنَ الموت. نحن نحتفلُ بالقيامة لأنّنا سنقومُ من بين الأموات. لن نقومَ كأشباح، أو خيالات، أو صُوَر. سنتمتّعُ بأجسام مختلفة، أجسام مِن نَوعٍ جديد. في ذلك الوقتِ سوف نقولُ إنَّ الحياةَ تستحقُّ أن تُعاش. إنّ التجسُّدَ والقيامةَ لا يُمكِنُ فَصْلُهُما في الإيمانِ المسيحيّ. فقيامةُ المسيح تُمَثِّلُ جَمالَ العالَم وَجُملَةً مِنَ الصُّوَرِ والرُّموز. عندما يتألَّمُ الإنسانُ-الإله، ويموت، ويقوم من بينَ الأموات، يُمَكِّننا من أن نناضلَ بِنَشْوَةٍ واتِّضاع، ضِدَّ كُلِّ أشكالِ الموتِ الّتي بداخلِنا، والّتي حَولَنا. قيامةُ المسيح هِيَ رَكِيزةُ الإيمانِ المسيحيّ، وَكُلُّ ما تَعَدّاها هو ثانَويٌّ. القيامةُ هي الغَلَبَةُ على الموت".

الخلاصة

بعدَ أنْ سردت باختصارٍ الخطوطَ العريضةَ لِحَياةِ غبطةِ البطريركِ إغناطيوس الرّابع الشّخصيّةِ والإكليريكية، أَوَدُّ أنْ أَختمَ بالتّالي.

إنَّ تَشديدِي على محردة، وعلى عائلة هزيم وظُرُوفِها الاجتماعيّةِ والاقتصاديّة، يُظهِرُ جُذُورَ ما تتميّز به شّخصيّةِ البطريرك مِن سمات التقشّفُ والبساطة. قَليلون هم الّذين يستمتعون فِعلاً بِطُهريَّةِ الحياة، مُبتعدِين عَن لذّاتها المادية.

أما حبهُ الكبير لِوالدِهِ "المعلّم أَسعد"، والنهجُ الّذي فَرَضَهُ على نفسِه بِهَدَفِ النّجاح والعِلْم، فيُشكّلانِ مِثالاً يُحْتذى بالنسبة إلى الجِيل الجديد، كما كان حال والَدِهِ معَ أبناءِ جِيلِه. يَجدُرُ بِنا ألاّ نَستَهينَ بالجُهُودِ الكبيرةِ الّتي قام بها الشابُّ حبيب مِن أجلِ كَسْرِ مَدارِ الرتابة الرِّيفيّة، وَطَلَبِ العِلْم في أفضلِ المدارسِ اللبنانيّة. كما علينا أَن نضيف، إلى تقشُّفِهِ وَبَساطَتِه، رُوحَهُ القِياديّةَ، وفَرادتَهُ، وتركيزَهُ الكُلِّيَّ على دَعْوَتِه.

وعلى الرغم من كُلِّ الدراساتِ المتقدّمة في الجامعة الأميركيّةِ في بيروت، وفي معهد القدّيس سرجيوس في باريس، فقد تَمَسَّكَ إغناطيوس الرّابع بإيمانِ الكنيسة الأُولى الّتي تقبَّلَتْ بِرَهْبَةٍ عميقةٍ المسيحَ المصلوبَ والقائمَ

مِنَ المَوت. فبِمُجَرَّدِ أنْ يكونَ قد تلقّى كُلَّ هذه التّعاليم الفلسفيّةِ واللاهوتيّةِ وَبَقِيَ في العُمق في بساطة تلاميذ المسيح، مُتَقَبِّلاً تعاليمِ بُولُسَ الرَّسُول وَمُؤمِنًا بِرُوحانية.

حياة البطريرك وسيرته تُظْهِرانهُ كَرَجُلِ إنجازات. إنّه مسيحيٌّ حَقٌّ في هذا العالَم الحقيقيّ الّذي نعيشُ فيه. يَبرزُ كإصلاحيٍّ وكَبَنّاء، وقد طَلبَ إعفاءَهُ مِنَ العَمَلِ في البطريركيّةِ مِن أجلِ أن يُعِيدَ إلى كَنَفِ الكنيسةِ دَيرًا وَقَعَ ضَحِيَّةً للإهمال. وَجَدَ البطريركُ ديرَ البلَمند مَرْتَعًا للغَنَم والرُّعاة، فأصلَحَهُ وأعادَهُ إلى أمجادِهِ كَصَرْح للصّلاةِ والتّعلُّم. لقد قضى عمره بقَبُولِ التّحدّيات، وَكُلَّما كان التحدّي أَصعب، كان التجاوب معه أقوى.

خِلالَ عمليّةِ البناء، كَسَرَ البطريركُ رَتابَةَ النّماذج التّقليديّة، فَبَنى جامعةً وليس فقط مدارس وَدُور عَجَزة. كانت هذه الخطوةُ هي الأُولى مِن نوعِها في التاريخ الأرثوذكسي، وعَملاً شُجاعًا أَدْخَلَ الأرثوذكسيّةَ في فَلَكِ التّعليم العالي، وأمّنَ لَها اعترافًا دوليًّا. إنّ فكرة إقامة جامعةٍ جعلت عَدَدًا كبيرًا مَن الأرثوذكس والأصدقاء يسهمون معه في تحقيقها، إنه عمل غيرُ مسبوق. إلاّ أنّ البطريرك لم يَبنِ حجرًا فقط، على أهميته، بل أوجد بُنْيَةً أكاديميّةً بدأتْ بعدَ سنواتٍ قليلةٍ بِتَخريجِ آلاف الطُّلاّبِ في شَتّى الحقول.

البطريركُ هو رَجُلٌ إصلاحيٌّ، وقد يَصحُّ وصفه بالثّائر. فلِكَي نستطيعَ تقديرَ دَورِهِ في حياةِ الكنيسة، علينا أنْ نُفَكِّرَ مَليًّا بِكُلِّ عِظاتِهِ، وخِطاباتِه، ومُقابَلاتِه، وَكتاباتِه، ونَختارَ منها المساحاتِ الفكريّةَ الجديدةَ الّتي

صاغها البطريركُ في اللاهوتِ الأرثوذكسيّ. لِسُوءِ الحَظّ، فإن هذا البُعد من إسهاماتِهِ غَيرُ مَعروفٍ كثيرًا، وهو بانتظارِ بحوثٍ مستقبليّة. ولكن عدد القرّاء قليل، وعدد الكتّاب الجدّيين أقل. فهناك غيابٌ للجدّية ورُبَّما بعضٌ مِنَ اليأسِ في عصرِنا الحاليّ، وهذا ما يحول دون المحاولاتِ التّغييريَّةَ في الفِكرِ الدّينيّ.

أنْ يُحافِظَ البطريركُ على مُرُونَتِهِ الفِكريَّةِ على الرُّغم مِن أجواء الرتابة في محيطنا، لَهِيَ شَهادةٌ بليغة لِعُمْقِ دراساتِه، وَأَصالَةِ طِبَاعِه وغنى فكره. إنّ انسجامَ أعمالِهِ مع فِكرِهِ هُوَ حقًّا أَمرٌ مُثيرٌ للإعجاب.

إنَّ تَعاطِيَ البطريركِ الفَعّالَ معَ الكنائسِ المسيحيّةِ الأُخرى في العالَمِ أَجْمَع، أتاح له مِنبَرًا، وَفُرصةً للتَّعَلُّم والتَّعليم. قِلّةٌ مِن المُفَكِّرينَ تَعَمَّقَتْ في فلسفةِ "الآخَر" كما فَعَلَ البطريرك. فَهو رَفَعَ خِطابَهُ المتعلّقَ بالآخَرِ إلى أَعلى دَرَجاتِ الفلسفةِ واللاهوت. انطلقت فلسفتُهُ مِن حُبِّهِ العميقِ للإلهِ الواحدِ الّذي خَلَقَ الجميعَ، وَلَمْ يَخلُقْ شعبًا واحدًا على حِسابِ الشُّعوبِ الأُخرى. صار الآخَرُ بالنّسبةِ إليه، صورةً عن نفسِه، مِرآةً، أَخًا في عالَمِ اللهِ المقدَّس. هُنا تَكْمُنُ فُرصةٌ للبحث الجدّي في هذا الجانبِ مِن فِكرِه، هَذا البحثُ الّذي يَجِبُ أَلاّ يَقتَصِرَ على النّاحِيَتَينِ الرُّوحِيّةِ واللاهوتيّةِ فَحَسْب.

إنّ حُبَّ الآخَرِ هُوَ أيضًا الخُطوَةُ الأُولى نَحوَ بِناءِ الأوطان، وإعادةِ بناءِ ثقافتِنا المستقبليّةِ. هناك حَيِّزٌ واسعٌ في عِظاتِ إغناطيوس الرّابع يَصلُحُ، إنْ فُهِمَ جَيّدًا، أن يشكّل أَساسًا متينًا لمجتمع متطوّر في العالَمِ العربيّ. هُوَ لم يتكلّمْ فقط كإكليريكيّ، بلْ كَمُفكِّرٍ اجتماعيٍّ في عصرِ التّحَوُّلاتِ السّريعة.

With the Board of Trustees at
the University of Balamand

مع مجلس أمناء جامعة البلمند

Inauguration of Ignatius IV Hall

تدشين مبنى إغناطيوس الرابع

مع العمال خلال تشييد مبنى
إغناطيوس الرابع
With the workers during the
construction of the Ignatius IV Hall

مع رئيس جامعة البلمند
الدكتور إيلي سالم
With President Dr. Elie A. Salem

His Beatitude Patriarch Ignatius IV of Antioch during his visit to Patriarch Nasrallah Sfeir, to his left Dr. Elie Salem

غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع خلال زيارة البطريرك نصرالله صفير وإلى يساره الدكتور إيلي سالم

The International Holy Synod in 1993

المجمع المقدّس الموسّع سنة ١٩٩٣

With the Archbishop of Greece Christodhulos

مع رئيس اساقفة اليونان خريستوذولوس

With Mufti of Lebanese Republic
Al-Sheikh Hasan Khaled

مع مفتي الجمهورية اللبنانية
سماحة الشيخ حسن خالد

With Patriarch of Russia Alexiy II

مع بطريرك موسكو وكل روسيا ألكسي الثاني

With His Holiness Pope John Paul II

مع قداسة البابا يوحنا بولس الثاني

مع سماحة السيد موسى الصدر

With Sayyed Musa al-Sadr

مع سماحة السيد محمد حسين فضل الله

With Sayyed Muhammad Hussein Fadlallah

On the Antiochian Throne

على عرش أنطاكية

With H.E. Prime Minister Saeb Salam

مع دولة الرئيس صائب سلام

With H.E. Prime Minister Rafik Hariri

مع دولة الرئيس رفيق الحريري

1st Graduation Ceremony year 1992 in the presence of President Elias Herawi

احتفال التخرّج الأول في جامعة البلمند، في العام ١٩٩٢ بحضور الرئيس الياس الهراوي

With King Fahed

مع الملك فهد

With President Elias Sarkis in Taef Convention 1981

مع الرئيس الياس سركيس في مؤتمر الطائف ١٩٨١

With President François Mitterand
and Bishop Gabriel Salibi

مع الرئيس فرنسوا ميتران
والاسقف غفرائيل الصليبي

With King Abdallah II of Jordan

مع الملك عبدالله الثاني

With President Sheikh Amine Al-Gemayyel

مع الرئيس الشيخ أمين الجميل

With President Jimmy Carter

مع الرئيس جيمي كارتر

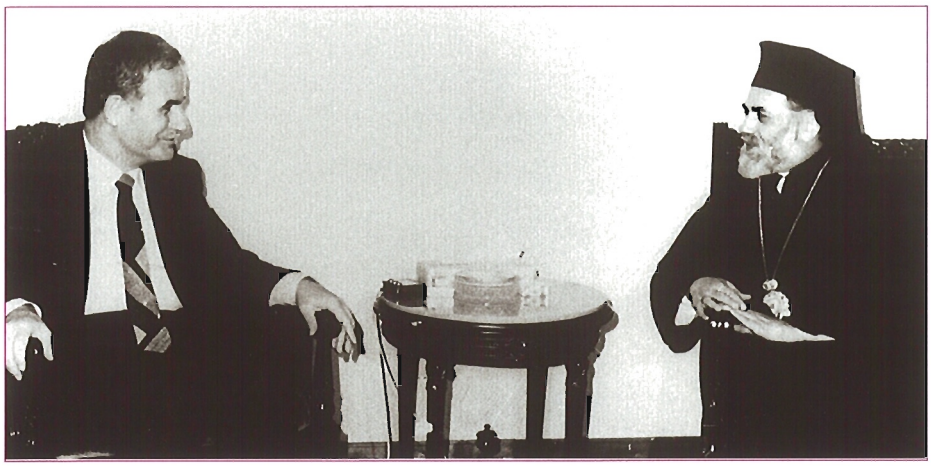

With President Hafez Al-Asad

مع الرئيس حافظ الأسد

With President Elias Sarkis

مع الرئيس إلياس سركيس

With President Jamal Abdel Naser

مع الرئيس جمال عبد الناصر

Bishop Ignatius Hazim with
Metropolitan Elia Salibi
and President Kamil Chamoun

الأسقف إغناطيوس هزيم مع المطران إيليا
الصليبي والرئيس كميل شمعون

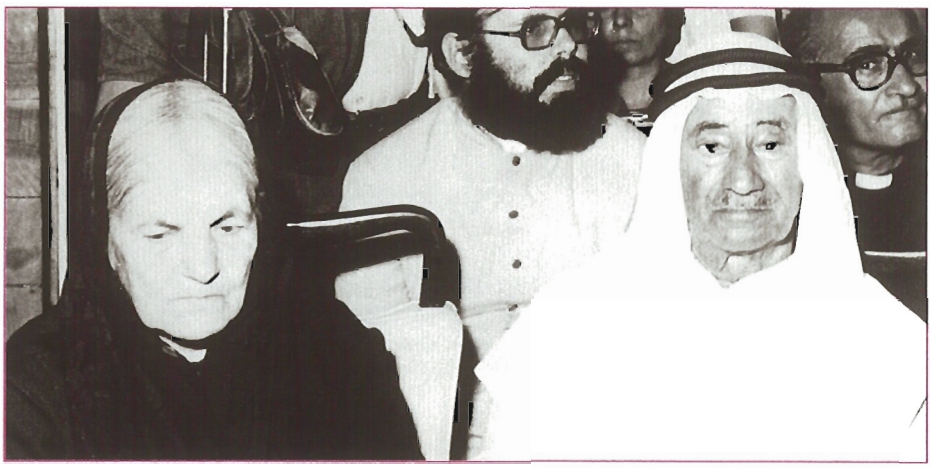

Father Assaad and Mother Mariam

الوالد أسعد والوالدة مريم

From right to left: Joseph, Sarah, Asia, Nadwa, His Beatitude, Zakieh, Sofia, Mother, Peter

من اليمين الى اليسار: يوسف، سارة، آجيا، ندوة، صاحب الغبطة، زكية، صوفيا، الوالدة، بطرس

reading public is too thin to encourage discourse, but also the resources of the Church are too limited to actually publish serious work and market it effectively. A spirit of laxity and perhaps of despair permeates our times. Such a spirit is likely to discourage attempts at breakthroughs in religious thought.

That the mental agility of the Patriarch has remained intact in spite of persistent gravitational pulls is a testimony to the depth of his learning and the purity of his character. His consistency in thought and deed is truly remarkable.

The fact that Ignatius IV has remained active with other Christian Churches throughout the World has given him a forum and an opportunity to teach and to learn. Few thinkers have delved as deeply in philosophizing the "other" as he has. He has brought his discourse on the other to higher philosophical and theological levels. This philosophy of his has emanated from his deep love for the one God who is Creator of all, not of one people at the expense of others. The other becomes to him a reflection of oneself, a mirror, a brother in God's sanctified world. Here is an opportunity for scholars to research this aspect of his thought, and not only in its spiritual and religious context.

The love for the other is also a first step in nation building, and in rebuilding our future culture after its historic downfall. There is a great deal in the sermons of Ignatius IV that with proper interpretation can serve as guidelines for nation building in the Arab World. Not only has he spoken and written as a cleric but also as a man of his times, as a thinker in an age of rapid transitions.

fundamentally simple in accepting and believing in the spirit of St. Paul's teachings, is truly an inspiring example.

The life of our Patriarch reveals him also as a man of action. He appears as a true Christian in the true world in which we live. He emerges as reformer and builder. He asked to be released from work at the Patriarchate to claim back for the Church a monastery that had become a victim of neglect. His life is one of accepting challenges – the more difficult, the more inviting. He found Balamand Monastery a home for sheep and shepherds and restored it to its glory as an edifice for prayer and learning.

In building, he broke ranks from traditional patterns of building schools and old people's homes to building a University. This was a first in Orthodoxy and a valiant effort to capture a place for the Orthodox in higher education and to gain world recognition for it. Building a university involved such extensive mobilization of the Orthodox Community and its friends as to tap resources never approached before. Here he not only had to build physically, not a mean feat by itself, but to create an academic structure that in a few years was graduating the best in many fields.

The Patriarch is first and foremost a reformer, perhaps a revolutionary. To fully appreciate his role in the Church one must reflect carefully on all his sermons, speeches, interviews, writings and cull from them the new highways he is opening in Orthodox theology. Unfortunately, this dimension of his contribution is largely unknown and awaits future research. Not only our

CHAPTER VIII

Postscript

Having sketched in brief and with broad brush the life and career of His Beatitude Patriarch Ignatius IV, I will now conclude this essay.

My emphasis on the Hazim family and their background in Mhardé, with its particular socio-economic conditions, shows the origins of the characteristics of frugality and simplicity in the person of our Patriarch. Few indeed are the individuals who truly enjoy puritanism in life with total disregard to its trappings.

His adoration for his father, al-Mu'allim As'ad, and the discipline he imposed on himself to succeed and become a learned person, represents a model for a new generation, as his father was for his own generation. We should not underestimate the rigorous efforts of the young Habib in breaking the rural cycle, and in seeking education in the finest schools in Lebanon. To his frugality and simplicity must be added the purposeful drive to be a leader, a man apart, and one totally focused on his calling.

With all the sophistication of his learning at the American University of Beirut and at St. Sergius in Paris, Ignatius has maintained a faith reminiscent of the early Christians, who accepted with deep awe the crucified and resurrected Christ. To stand formed by philosophy and theology, and yet remain

dead. The Lord had a nature like ours. Besides His divine nature, he was a man like we are. In this world he was weary, he ate, drank, walked, suffered and died. He died in reality just as we die. He was dead for three days. But he rose again. We celebrate the Resurrection because we shall rise from the dead. We shall not rise as ghosts, shades, or images. We shall have bodies of a different kind, a new kind. At that time we shall say life is worth living. Incarnation and resurrection are inseparable in Christian faith. The Resurrection of Christ manifests the beauty of the world and an abundance of images and symbols. When the God-man suffers, dies, and rises from the dead he enables us to struggle in ecstasy and humility against all forms of death within us and around us. The Resurrection of Christ is the pillar of the Christian faith; all else is secondary. The Resurrection is victory over death."

"Incarnation must be accepted simply and directly. You say this or that woman gave birth to a boy or a girl. Similarly we say the Virgin gave birth to Jesus. This should be taken as a fact without over-philosophizing. Christ took a human form by being born from a woman. Christians accept God-given truth. Faith is based on acceptance. Christ appeared amongst them, he cured the sick, he spoke in the name of the Father, he was who He was. 'Come and see.'"

"In becoming human, Jesus was fully man, like you and me. And unlike us he was fully spirit. He was born of Mary through God's miraculous intervention. And in this sense God cannot be man, and man cannot be God. By becoming man, by dying on the cross, and by his resurrection, he rendered matter holy; he rendered all creation holy. He not only conquered death, he infused being with spirit, joy, and hope. Resurrection is an awesome pillar of Christian faith."

"Christ came to the world and lived amongst us. He was one of us. In the West, they depict him as Italian, or French, or British. This is not the historical Jesus who resembles us today, and would be indistinguishable in our midst. He came with a message to us and to the world. He taught by example, by talking to people, and by cultivating Disciples to carry the message after his ascent to Heaven."

"In incarnation the man-God dies and rises from the

"Fundamental to religion is the Day of Judgment. This Day is to render man responsible for his acts, and accountable before God above. One is judged by what he has done or not done to his brother in humanity, to the other. On Judgment Day you are asked, 'What have you done for your brother?' Did you see him in need, did you help? The concern of religion is humanity in its totality."

"It is significant to remember that Christ spoke about the human person, not the male or female. Humans are the same to him. He did not discriminate against his mother or the women who joined his flock. He blessed the image of man's creation. There were people who believed in a God for the good and a God for the evil. Evil, however, is the absence of the good. And the world is created to further the good in it."

"In the New Testament, the Apostles spoke differently, each of them emphasizing certain themes. Matthew, for example, was Jewish, and he emphasized Christ's speech to the Jews. Luke was a doctor, a meticulous observer of detail. He gave a detailed account of the birth of Christ and his mother in a simple clear style. Mark seems to have depended greatly on information derived from St. Peter and St. Paul. John may have been of Greek descent. When he wrote, 'In the beginning was the Word and the Word was with God', he was invoking a Greek and not a Semitic concept."

As for the Patriarch's perception of religion, Christ, and the "other", he had a lot to say in his sermons.

"God cannot be the monopoly of any one people. God is the Creator of all, the Father of all, the Redeemer of all. To claim that only you the Jews were the children of Abraham is wrong. Should God wish, 'He could bring forth from stones children for Abraham'. He wanted to transform them from followers of the law, from literalists, to a people conscious of others. He wanted them to regard the living person, the real human being whom God wanted in His image."

"God created man to live his humanity fully and in all its dimensions. He must do so, however, reasonably and not abuse God's gifts to him."

"Christ came from His seat in heaven, as a human being, as one amongst many. This was to show them the difference between being, and reading in books. It is being, the life of the individual and his destiny, that was His concern. In this lies the difference between religion and philosophy. With the first you live it, with the latter you talk about it."

"It is true Christ addressed the Jews. He came from above to all the people to change faith from words written in books to actual living, to the very facts of being. He came to spread the word of God not to one people, or to one region, but to the whole world."

hypocritical West. In this spirit we bemoan the tragedy of Jerusalem. Jerusalem (al-Quds) is the heart of humanity. What harms al-Quds harms every human throughout the world. The face of al-Quds is spiritual, religious, human, and humane, and we reject its treatment as a political football in a capricious regional game. The spirit of Jerusalem transcends historical ebbs and flows. We are vehemently against the Judaization of Jerusalem and the elimination of its Christian-Muslim character. The future of Jerusalem belongs with the future of the Palestinian people and with the Arab Christians who share with them a distant past and an infinite future."

"To us Jerusalem is a symbol of man's freedom from repression and crucifixions. Of all the people in the world we have most at stake in Jerusalem. In the deepest sense of the word Jerusalem is ours, and yet it is under Israeli occupation, and because of repression, the Christian community in Jerusalem has dwindled to insignificance."

"The tragedy that fell to Jerusalem has fallen to Palestine as a whole under alien Zionist occupation. As Orthodox Christians we not only witness to our own tragedy but also to the tragedy of our Muslim brethren in Palestine. The least that we can do is to witness to justice and to truth, the two universal values that have been violently violated in Palestine."

dead in Jerusalem. From there his teachings spread throughout the World. The world was perhaps faithful but not original. In the West you have resorted to reason and made great progress in science and technology and in social institutions. We in the East have lived in silence, in prayer, in fidelity.

"We Christians of the East were able to see beyond the brutal force exercised on the people of the East, we were able to discover in the West its love for reason, for knowledge, for science and technology, for research and experiment that has contributed immensely to the welfare of mankind. We respect the West for its contribution, but we also blame it for its attitude towards us in past centuries. Instead of helping us to renew ourselves the Westerners tried to convert us. We welcomed the missionaries with hope in our hearts, but they ignored our identity, they refused to recognize our Church."

"Nevertheless, we should attempt reconciliation. Let us start by what is common between us, namely the doctrine laid down by the Seven Great Ecumenical Councils. This doctrine was formulated before the schism between East and West. We have to move towards each other. The issues at hand are momentous and we should resolve them in the spirit of the Seven Councils."

"We have a destiny as Christians in the Arab World to witness to Christ, and to light a candle that may guide the

are from here. The Gospels were written by our people. Christ was one of us. His color was like ours, he spoke the language our ancestors spoke. He lived in the towns and villages that are ours. We are the original witness to Christianity. We in the Orthodox Church are people of the Gospels, of the Apostles, and of the Prophets. We hold fast to our Eastern identity."

"As Christian Arabs we have a role no one else can play. We interpret Christianity to the Arabs, and Islam to the world. We do have a problem because of foreign intervention, particularly Western Christian intervention in the Arab World. Some of our Arab brethren confuse Western Christianity with Arab Christianity, and we often fall victim to this dangerous misunderstanding. Our Muslim brethren forget that we have always been here, some six hundred years before them. This historical fact is often forgotten. Surely it was never known to the general populace, who have no serious historical perspective."

"To our Christian brethren in the West I say you should try to understand us. Only by understanding us as the original Christians do you truly understand yourselves. Christians in the West do not give Bethlehem, Nazareth, Jerusalem, Syria, and Lebanon the attention they deserve. They forget that Christ came from Palestine. Of all the founders of religions he was the only one to teach in Jerusalem, to die in Jerusalem, and to rise from the

came and went and thundered overhead. And yet we remained steadfast in our faith, humble, yet proud, and defiant in our convictions."

"The spirit of Antioch is an apostolic spirit, fermenting like yeast in dough. We are a ferment in this land, a quality, a value, not a number, not a quantity."

"The spirit of Antioch permeates man as bearer of divine truth, and as the dwelling place of love – infinite and unrestricted."

"We are Christian Arabs. We were here in Palestine, Syria, and Lebanon, long before Islam. When Arabs carrying the message of Islam conquered this land, we cooperated with them, and we shared considerably in the rise of the Arab-Islamic civilization that flourished under the Umayyads (650-750) and the Abbasids (750-1258). We were the catalyst, the intellectual-scientific element between them and the Greek world. We were not only middlemen but contributors in all fields."

"Arabic has been our liturgical language for centuries. We played a role in classical Arab history and we played a major role in the Arab reform movement that started in the 19th Century and in the wake of the Ottoman Tanzimat."

"Christ was born in Bethlehem in Palestine. The Apostles

CHAPTER VII

The Patriarch in His Own Words

In the previous chapters I was doing the talking. I collected data about the Patriarch's life, I followed his career, his studies, his accomplishments. In this Chapter the Patriarch will be talking on the issues that I found appropriate for this book.

I have made my own selections, presenting them in such a way as to be informative to the reader. Some of these selections appeared in the book *Mawaqif wa Aqwal,* and I have found it appropriate to include them in this book. While his Patriarchate is itself a door into Orthodoxy, his ideas and his interpretations of the texts provide a guide into our faith as Antiochian Orthodox.

I shall let him speak directly to you, starting with a subject close to his heart: "Who are we?"

"We are Antiochians, the progeny of the Original Church founded by Sts. Peter and Paul. We are the Church of the East, fully Eastern, fully at home in our region. Our hopes are the hopes of our region, and its tragedy, if tragedy it is to be. We are the authentic people. Others come as our guests. We welcome them. We work with them, but we never forget our authenticity, our originality here. Sure, we had a difficult past. Empires

It came as something of a surprise when the Patriarch, my friend Issam M. Fares, and Ghassan Tueini, asked me to take on the Presidency of the University of Balamand (UOB). I was honored by the request, however, and gladly accepted the offer. Since December 1993 I have been in office, helping our historic founder translate his dream into reality. At the time of writing (2009), the University has grown from the original three Faculties to nine, from two buildings and a half to thirty-five buildings. The Campus has expanded from 20,000 to 500,000 square meters, and development in Beirut is on a fast track.

New branches are to open soon, one in Akkar, the other in Mount Lebanon. A hospital is also about to take shape now that funds are available. The few hundred students who braved the University in 1988 have swollen to over 4,000. The University that was long confused with the Monastery of historic fame, is now one of the top private universities in Lebanon and the region. Sometime soon its history will have to be written up and published separately, as the magnificent achievement of a young, dreaming youth from the town of Mhardé, a humble suburb of the humble town of Hama, Syria.

Now the last thing Tueini needed was to be president of a university. He was already the most prominent journalist and publisher in the Arab World, a seasoned Lebanese statesman since the early 1950s, and clearly one of the busiest men in the region. And yet when the Patriarch recruited him for the presidency of the University, he did not hesitate, not only because he was so close to the Patriarch, but also because he wanted to fulfill in part his lingering interest in education, and his pioneering role in it since he had been Minister of Education in the 1970s. After serving three years on the job, and giving the University the boost it needed nationally and regionally, Tueini asked his beloved friend to relieve him of the presidency. The Patriarch and Tueini were now looking for a president who would be full-time resident at the University. During his presidency of the University, Tueini did not, indeed could not, relinquish his other exacting roles as statesman, as journalist, as publisher, as a leading figure in the ups and downs of national and regional politics. The University, they both felt, needed an academic.

Here I come in, pretty much out of the blue. I had known of the Patriarch for a very long time, and I was a great admirer of him as Patriarch, as thinker, as patriot, as humanist. While he was Bishop at Balamand, my family was close to him. My father, not generally inclined towards clerics, held him in the highest esteem. He singled him out for praise, a scarce commodity from his bag. Truly a man of the Church, my father always repeated, implying suspicions about others.

were Orthodox. With the support of President Gemayel, and the understanding of Prime Minister Salim al-Hoss, the efforts of Dr. al-Rasi finally came to fruition, and on June 4th, 1988, a decree authorizing the Antiochian Orthodox Patriarchate to establish a university in Balamand was issued.

Being the only Patriarch amongst the 165 Patriarchs who had occupied the Antiochian Orthodox Throne to establish a university, our Patriarch felt that he had realized his dream and fulfilled his obsession. The idea had become a legal reality with three separate Faculties – two on Balamand Hill and one, the Academie Libanaise des Beaux Arts, in Beirut. The University needed a Board of Trustees. He appointed one. To function as an administration and as a unified body, it needed a President. The Patriarch, being quintessentially a man of the East, was highly personal. He was looking for a man he knew and respected, one he could trust with his creation; this person was Dr. Georges To'meh. Dr. To'meh, now retired after a long career as professor of philosophy at the American University of Beirut, and as Ambassador of Syria to Washington, was an active Orthodox in the Patriarchal circle. Although he was not in good health, Dr. To'meh accepted the trust and served with dedication for two years, 1988-90. He resigned for health reasons. The Patriarch again looked at his inner circle of friends, and in this circle no one was closer to him than Ghassan Tueini. The Patriarch always favored Ghassan as his closest personal associate, and Ghassan always loved and revered the Patriarch. The bonds between the two are truly special.

turn out to be as easy as he had thought. Somehow, the request kept disappearing into the cracks of the notorious bureaucracy. From office to office he trudged to follow up his prized request. In each office he was told a different story. He was now swamped with rumors: this and that community did not want the Orthodox to have a university; this and that leader wanted a special appeal from the Patriarch so that the Patriarch might be always beholden to him; the request had already been refused. Not easily distracted by such rumors, the Patriarch persisted, though not without some inner pain.

Lebanon was then and remains now a highly confessional country. For a transaction to succeed, it must follow a confessional path. It must have a confessional facilitator, a member of the Orthodox Community, a leading figure in Lebanese politics, a politician who knows his way in the labyrinth of bureaucracy. This man was Dr. Abdallah al-Rasi, a member of Parliament from Akkar, North Lebanon. To him, the Patriarch entrusted the file and the hope of founding the first Orthodox University, and furthermore in North Lebanon.

It was fortuitous that the President of Lebanon in the 1980s was Shaykh Amine Gemayel, himself a highly cultured man, well read, versed in music and the arts; and to him the founding of a new university was a good thing for Lebanon and a feather in the cap of his administration. There was also mutual respect and admiration between Patriarch and President. Indeed, the President had always held a weakness for the Orthodox Community as two of his closest advisors

secretary and assistant, Mr. Georges Haddad, that he kept the Academie going through the dangerous war years. The Academie gave diplomas in architecture, in fine arts, in design and in audio-visuals. The Institute of Theology was already a university level institution, having offered a degree, the License, from the time when Ignatius presided over it. He saw the Institute grow slowly and incrementally on its own, pretty much isolated from cultural-intellectual interaction in its hilly environment. A university would give it depth and dimension, and in return it would give the University spirit and direction in the essentially Christian rectilinear progression of history.

No university, however, is complete without a Faculty of Liberal Arts, of Humanities and Social Sciences, a Faculty of the essence of mind – to think, to inquire, to dream, to broaden horizons. To our Patriarch, mind was an integral and guiding constituent of the spirit and it needed to be nurtured by the yearning of man for the true, the just, and the beautiful. Mankind has accumulated from time immemorial a wealth of insights in all walks of life. And in the very style of the Patriarch, he announced the establishment of a Faculty of Arts and Social Sciences, and appointed Dr. Georges Nahas, Principal of the Balamand High School, as Dean of the new Faculty.

With three Faculties in his arsenal, he proceeded with the official request to the Government of Lebanon to secure a permit authorizing him to establish a university. This did not

Balamand to our Patriarch had the better claim: it was indeed "grassy", untrodden; it was also distant from Beirut in a relatively neglected area of the country. Mansuriyyah was there in Beirut, the home of virtually all universities in Lebanon. But Beirut had less need.

Universities were founded in Beirut. In time they developed branches in the outer regions of Lebanon. What the Patriarch had in mind was a university founded in a rural region that would in time expand into Beirut. He sought a reversal of the process. If Kurah people had for a century studied in Beirut and contributed to Beirut, he now wanted Beirut to come to al-Kurah so that Kurah might come unto its own through higher education. And Balamand, he reflected, would not be the only university to arise in a village, insular and distant. Oxford claimed that distinction too. A good model.

By Lebanese law a decree authorizing the opening of a university requires a minimum of three Faculties. Once a university opens it may apply to the government to introduce new Faculties according to the capacity of the university and the needs of the country. Of the three Faculties the Patriarch needed to secure a decree, he already had two of university standard – the St. John of Damascus Institute of Theology at Balamand and the Academie Libanaise Des Beaux Arts (Alba) in Beirut. Alba had been founded by a prominent Orthodox intellectual and artist, Mr. Alexis Butrus, in the early 1940s. Butrus died and left Alba in a difficult legal situation with his heirs, the extended Butrus family. It is to the credit of his

project. In the 1980s, the Patriarch held many meetings in Paris, London, Geneva and Nicosia with leading Lebanese, Syrian, and Palestinian friends. Lebanon was then in the midst of a devastating internal conflict which necessitated holding these meetings abroad. Establishing an Orthodox university was by now his pet and grandiose project. He kept the intent to himself, however, as he thought it might not be taken seriously – not least because war conditions in Lebanon made the idea seem ethereal and impractical.

During the 1980s, the friends of the Patriarch were urging him to have an official Residence in Beirut or its suburbs, like all religious leaders in Lebanon's confessional mosaic. The Patriarch felt this was too presumptuous as he could always hold meetings in the Beirut Archdiocese or in any of the Patriarchal Monasteries, like the Monastery of Our Lady of Balamand or the Monastery of Mar-Elias Shwayya in Dhur al-Shwayr. Balamand, in particular, always occupied a soft spot in his heart and he had already worked on the nucleus of a university there. The Archdiocese of Mount Lebanon owned land in al-Mansuriyyah, a suburb of Beirut, and many thought that this was the appropriate place for a university. Beirut and its environs are where all the universities are based, people argued. Yet like that traveler in the poem by Robert Frost, "The road not taken", the Patriarch looked down one road as far as he could ... then took the other. It had perhaps the better claim too, because it was grassy and needed wear. He looked hard at Mansuriyyah – and chose Balamand.

education. The Maronites, through their monastic orders, had established five universities. The Sunnis, with help from Egypt, established the Arab University of Beirut. In time, the Shi'is too established their own, the Islamic University in the Dahyah region of Beirut.

Our Patriarch noted that Orthodox youths sought university education with all the others. So he reasoned, why not have our own university, with our own values? He felt that the Orthodox had always been ready to build schools, hospitals, and old people's homes, but never a university. As a student at the American University of Beirut he realized how important an institution of higher learning was for future generations. What the Protestants and the Catholics and the Muslims had done was worth emulating, recognizing that each of these communities had its own distinctive characteristics. He had no doubt about the characteristics of a university founded by the Patriarchate of the Antiochian Orthodox Church. While still a Bishop in the 1970s, he had taken the first step in the direction of higher education by raising the level of the Theology Institute from that of a secondary institution to that of a university offering the Bachelor's Degree.

Because Ignatius IV was known as a spiritual figure, with minimal mundane needs, wanting virtually nothing for himself, he was greatly admired, and he accordingly attracted many supporters for the causes he espoused. If he asked for funds, it was certain that all funds would go to the intended

He initiated a process long ignored in Antiochian Orthodoxy by sanctifying in 1993 the martyred priest Yusuf al-Dimashqi. He reached an agreement with the Syriac Orthodox, allowing the faithful of the two communities to share in each other's liturgy.

He hosted in Balamand in 1993 a conference on Christian dialogue, leading to a document called "The Balamand Agreement", which defined processes of cooperation between Catholics and Orthodox as a prelude to broader dialogue with other Christian Churches.

The University of Balamand

The thought of establishing a university was always in the Patriarch's mind as an idea, perhaps a distant idea that needed time to be realized. He knew that foreign missionaries in the mid-19th Century had founded schools, built hospitals, and moved towards building institutions of higher education. They built a college for educating women, a first in the region. They founded a new modern University, "The Syrian Protestant College," another first in the region. There had always been traditional institutions, but these were largely cut off from modern education, from liberal education, and from the scientific method. When Daniel Bliss founded the Syrian Protestant College in 1865, he predicted that the Catholics would respond by building a Catholic university. Sure enough, in the 1870s the Catholics founded the University of St. Joseph. Later, it seemed each religious community was building its own institution of higher

patriarchal properties, which for years had been in chaotic form. He was assisted in his task by Mr. Adnan Takla, who spent a great deal of time with lawyers and in courts cataloguing the properties and bringing them under the direct control of the Patriarch. A similar effort was undertaken in all the Patriarchal Monasteries in Lebanon and Syria. When he assumed the Patriarchate, there were three Patriarchal Monasteries in Syria (Saydnaya, Ma'lula, and Humayra) and two in Lebanon (Balamand and Mar-Elias Shwayya). Ignatius IV built the Monastery of St. Georges in Saydnaya, the Monastery of Christophorus and a further monastery in Tal Kawkab, the place where Saul encountered Christ and became the Apostle Paul.

The Patriarch gave special attention to existing Orthodox schools by expanding al-Siyyi school, strengthening the Dirayya School and the St. John of Damascus School, and founding a new school in Saydnaya. He is known particularly for building churches and erecting spacious halls for religious, cultural, and festive events. A new church in his hometown Mhardé was erected, a symbol of his attachment to his family and hometown.

As Patriarch, his main concern was religious. He visited the city of Antioch, a largely symbolic yet important gesture. And he gave special attention to the Antiochian Orthodox community throughout the world, working hard on unifying the Holy Synod after the internal conflicts of previous decades.

chosen people, teaching all the Lord's commandments, and walking as an example in all justice. Now take in your right hand this true staff in order to tend the flock of Christ. May it be an aid and a support for the obedient, and for the rebellious and the wayward may it be a staff of instruction and discipline."

The new Patriarch was then to be invoked at all major Church occasions and in the Holy Liturgy on Sundays as: "Ignatius, most holy, blessed, and respected father, raised up by God as Patriarch of the City of God, Great Antioch, Syria, Arabia, Georgia, Mesopotamia, and all the East; father of fathers, pastor of pastors, head of heads, thirteenth of the holy and pure Apostles, our father and leader of our flock, may his years be many."

In addition to the needs of the Church for churches, Priests, and chanters, Ignatius IV was most conscious of the conditions of the elementary and secondary schools in each archdiocese. They were all in need of good teachers, high standards, adequate buildings, and proper spiritual guidance. He had in mind the reforms he had introduced at Balamand, and was eager to work with the respective Bishops to introduce them. These were matters to be put on the agenda of the Holy Synod.

He took a new initiative. He invited the Orthodox elite from all professions to engage in the affairs of the Church. He took on the difficult task of identifying and organizing all the

Once elected, the process of installing the Patriarch and arranging the logistics – involving both state and church protocols – began. The Patriarch must prepare for two positions: (1) as the Bishop of Damascus and its environs; and (2) as Patriarch, head of the Holy Synod, primus inter pares, spiritual leader of the Antiochian Orthodox Community in Syria, Lebanon, all the East, and wherever in the world Antiochian Orthodox had in recent times emigrated.

A senior member of the Holy Synod, in this case Archbishop Ignatius Furzli of Brazil, handed the shepherd's staff to the new Patriarch proclaiming, "The Holy Antiochian Synod, the revered assembly of the clergy, and the whole body of Orthodox people, have elected Your Beatitude by common agreement as Patriarch of the City of God, Great Antioch, and All the East, an act made by the inspiration of God; and they summon you through your lowly brother to this Holy See of Antioch, founded by the two divinely inspired heads of the Apostles, Peter and Paul. Ascend to it, therefore, Your Beatitude, and grace it with long life as your predecessors graced it – the pure Apostles, Ignatius, great Eusaphius, noble Meletius, and the others who, in the fear of God, took up the staff of this holy office. May God be with you, O blessed of the Lord. Be courageous and strong in the Lord; be faithful in the service for which God, your God, has chosen you. In the fear of God, in faith and vigor, tend the flock redeemed by noble blood into the pastures of salvation. Furnish it with the divine springs of life, preserving faith and vigilance in prayer, loving God and His

tolling of all Orthodox Church bells in Damascus – a custom from ancient times announcing a major and joyous event. The new Patriarch had chosen the name of Ignatius when he was consecrated as Shammas. Three previous Patriarchs before him had taken the name. The word derives from Latin and means "fire". The first Ignatius in the first Christian Century had chosen it as he was burning with the love of God. He was martyred in Rome, torn apart by lions in the Colosseum. Ignatius II lived in the 14th Century. Ignatius III, a 17th Century Patriarch, presided over a period of conflict within the Church.

Ignatius IV was the seventh Arab Patriarch to preside over Antioch after a long succession of Greek Patriarchs from 1724 to 1899. In 1899 an Arab Patriarch Milatius al-Dumani was consecrated. The election of Milatius was treated as a victory for Arab national consciousness and for an identity that was not Greek – and was perhaps specifically opposed to a Greek identity. It may require some explanation as to why the Patriarch of Antioch resides in Damascus and not in Antioch. Antioch was central to the early history of the Church; it was a vigorous city under Byzantine rule. The Patriarch of Antioch resided in Antioch till its destruction by the Mamluks in 1268. Subsequently, Patriarchs and their flocks moved en masse to Damascus, which already had a large number of Orthodox. With the partition of the Ottoman Empire, Antioch was separated from Syria and ceded to Turkey. It now contains a small Orthodox population but is no longer central to the Church in any administrative manner.

The Election

Meetings with President Asad are proverbial. They used to go on for hours, meandering from one subject to the other – though not without humor. While President and Bishop exchanged views on God, man, politics, national and international affairs, the Bishops and Muftis, together with members of the Synod, were waiting for Bishop Ignatius to return from his mysterious visit. In the eyes of some, he was the right candidate. After his meeting with Asad the rumor spread that he was favored by the President. When the Bishop returned to the Patriarchate four hours late, his chances in the Synod seemed to have increased. Metropolitan Qurban told our man that he, Qurban, was not favored by the Syrians for the Office. Metropolitan Philippus of New York announced his intention of staying in New York, saying, "I will not change New York for Hay al-Kharab" (literally, "The Quarter of Ruins"), which is where the Patriarchate is located in Damascus. Metropolitan Georges Khodr was a viable candidate and strong competitor to the end. The Holy Synod deliberated in the main salon of the Patriarchate, but for the election proper they moved to the Sanctum Sanctorum of the Cathedral (al-Mariamiyyeh), in compliance with tradition that if held there the election would be inspired by the Holy Spirit. When the election was completed, the Archbishop of Hama, Athanasius Skaf, announced the result: the election of Ignatius as Patriarch Ignatius IV. The announcement was followed by intensive

4000 Syrian Lira. There was no budget for this and ad hoc arrangements had to be made.

Ignatius seemed to be the favorite of the Millet Council, but opposing voices were heard from the leftists, who leaned towards Moscow. The position of the Syrian Regime was also in doubt. The Regime had at one time been unenthusiastic about Ignatius for Latakia, and may not now have been in favor of his candidacy for the Patriarchate. Ignatius wondered whether the Regime suspected his connections with the American University of Beirut, of which he was graduate, or his connection with the World Council of Churches, both supposedly leaning towards Washington. The Regime was then on bad terms with the Americans and on good terms with the Soviets. While the Synod was independent, its members were subject to a diversity of influences. On the very day the Holy Synod was to meet to elect a Patriarch, Dr. Yusuf Sayegh called on our Bishop at 7 a.m. and asked him to join him on an errand. Yusuf Sayegh, an Orthodox Christian from Wadi al-Nasara in Syria, was a heart specialist, and the private physician of President Hafez al-Asad. He had been instrumental before with President Asad in getting the Bishop into Latakia after the four-year exile. "Errand for what?" asked Ignatius. "You will find out," came the answer. Then Dr. Sayegh took him to the office of President Asad. The President welcomed the Bishop and expressed confidence in him and in his position on national issues. The Bishop assured the President that whoever occupied the Patriarchal Seat in Damascus would naturally uphold the national values that had always been associated with the Orthodox Community.

CHAPTER VI

The Visionary Patriarch

The Patriarch to whom Ignatius reported was His Beatitude Elias Mu'awwad, formally Elias IV, formerly the Bishop of Aleppo. Patriarch Elias hailed from the village of Arssun, in Lebanon. When Patriarch Elias IV died in 1979, a campaign to elect his successor started in earnest. Ignatius was in his archdiocese in Latakia. He received a phone call from the Bishop of Homs, who informed him of the death of the Patriarch and urged him to proceed to Damascus to work out the logistics for the funeral and for the election of a successor. Some of the Bishops at that time were politicized. Ignatius was not. He was known to be scholarly, on the mystic side and fully dedicated to the Church. Upon the death of the Patriarch, Metropolitan Qurban of Tripoli was appointed Patriarchal Qa'immaqam (Patriarchal Vicar), that is, the Bishop entrusted with calling the Holy Synod for a conclave to elect a successor. It helped Ignatius that he was selected to give the funeral ovation. Some tension arose between the Damascus Millet Council and Metropolitan Qurban. The Millet Council felt that it was its responsibility to propose the names of three Bishops from whom the Holy Synod would select one. Conditions in the Patriarchate were not highly organized. For example, when Patriarch Elias IV died, discussion ensued as to how he would be buried and who would pay the expenses, estimated then at

met in Amsterdam to create a Council with an ambitious agenda to restore the one Holy Apostolic and Unified Church. The Council holds frequent meetings in promoting doctrinal unity, social justice, and dialogue amongst religions.

As a young Deacon, Ignatius had joined the World Student Christian Federation and served as its Vice-President for nine years (1960-68). The Federation grew from an original Evangelical Protestant movement in 1895, which was active mostly in universities. As Deacon he was also amongst the founders of Syndesmos, "The World Fellowship of Orthodox Youth".

Syndesmos is a world-wide Orthodox Organization merging together a hundred and fifty youth organizations in fifty countries. Its main objective is to promote Orthodox consciousness among young people and to strengthen their faith in the face of aggressive atheistic movements.

Ignatius was, finally, amongst the founders of the Middle East Council of Churches (MECC) and served as its president. The MECC coordinates activities of all the Churches serving in the Middle East. It deals with the issues pertaining to such Churches and to the challenges they face. Some of these challenges include Christian emigration to distant lands, which is threatening the Christian presence in Palestine, Iraq, Syria, and Lebanon. The MECC is also concerned with unifying, as much as possible, the beliefs and practices of Christian Churches in the region, and with rejuvenating the original faith of apostolic times.

leadership. As the new Metropolitan, he worked hard on improving the management of al-Awqaf (plural of Waqf); he built the Hotel al-Nur; he got the Awqaf recognized by the state as "Philanthropic Awqaf" and thus exempted from state taxation. He opened opportunities for the clerics to study and to assume positions of leadership. By allocating salaries to Priests, he liberated them from the corrupting intervention of the rich elite.

World Council of Churches

While he served at Balamand and at Latakia, our Bishop continued to be active in the World Council of Churches (WCC). The WCC gave him the intellectual opportunity to engage with colleagues from Catholic and Protestant churches. The Council was largely a Protestant initiative with major support from St. Sergius in Paris. The Orthodox professors at St. Sergius were for Ignatius a source of continuing theological inspiration. Membership included theologians, clerics and scholars from various countries – the United States, Britain, France and Switzerland. The main headquarters of WCC were and remain in Geneva, Switzerland. The Council worked mainly through its various committees, many of which our Bishop chaired.

As new Metropolitan, Ignatius was active on the committees of the WCC and especially on its central committee. As Patriarch he served as chairman of the Council (1983-1991). The WCC was founded in 1948 to promote Christian unity in the face of threatening ideologies and radicalizing schisms. Some one hundred and fifty representatives from three hundred churches

was thought of as the candidate to fill it. Latakia, however, was in the throes of internal conflict. Latakia had over the years attracted Orthodox refugees from southern Turkey, from Greece, and from Syria itself, to swell its population from 1,000 in 1900 to 12,000 in 1970. The town was bitterly divided. The rich families were in permanent conflict with its Bishops, who were always trying to control them. In the 1930s and 1940s the Latakia Orthodox Community itself was bitterly divided, and this schism led temporarily to the establishment of "The Orthodox Independent Church". In 1966 a new schism arose in the Holy Synod. The majority elected Bishop Ignatius as Bishop of Latakia, and a minority refused to accept the decision. The majority of the people in Latakia knew of the candidate and supported him, and a minority opposed him. The Syrian government then supported the minority assuming wrongly that Bishop Ignatius had Western leanings, perhaps because he had studied at AUB and at St. Sergius. In an atmosphere of false rumors and political infighting, the Governor of Latakia prevented the newly appointed Bishop from entering Latakia and assuming his new post as the Metropolitan of Latakia. For four years he was officially the Metropolitan of Latakia while he was actually residing in Balamand.

When Elias IV (Mu'awwad) was elected Patriarch, he persuaded President Hafez al-Asad to reverse the government's policy in Latakia and invite Ignatius to take his seat there. With this reversal of policy, the new Bishop arrived in Latakia and was warmly received. His first act was to end the conflict that had led to the schism and to unify the town under his spiritual

American archdiocesan support to the Institute by providing it with yearly donations.

Together with the teaching of theology and the preparation of leaders for the Orthodox Church, the Institute worked intensively on its manuscript collection. In spite of the archaic conditions of the neglected Dayr, hundreds of manuscripts survived. Specialists were brought to study the manuscripts and to classify them, and there is now a highly advanced Technological Center in the Institute, fully engaged in the process of manuscript restoration. One such manuscript was restored and published under the title *al-Namus al-Sharif,* which is an indispensable guide to Orthodox beliefs and practices.

The manuscript *al-Namus al-Sharif* is a collection of Church rules and beliefs of the Orthodox Church. These rules were written by the Fathers of the Church. *Al-Namus* contains the principles and rulings of the first Seven Ecumenical Councils. The manuscript has been for centuries a sourcebook on spiritual matters, whether clerical or personal.

When the Ottomans occupied Constantinople in 1453, the Orthodox in the Ottoman territory were recognized as an autonomous community (millet), and the Patriarch was allowed to maintain his seat in Constantinople, and to impose the rules now recorded in *al-Namus* on his religious community.

Bishop of Latakia

When the Office of Bishop in Latakia became vacant, Ignatius

The Bishop revived the school at Balamand. The school was established by Ottoman firman (decree) in 1833. The firman authorized the Monastery to establish a school and offer programs in higher studies. The school taught reading, writing, arithmetic, and Orthodox religion. It too had had its ups and downs, opening and closing as a result of political developments in Lebanon, and particularly in North Lebanon. Bishop Ignatius, however, converted it into a major secondary school offering the Baccalaureate certificate and preparing thousands of students of all religious communities. The Baccalaureate qualified their recipients to enter the universities operating in Lebanon, and consequently universities abroad.

Theology Institute

A greater achievement was the launching of the Theology Institute. To provide it with the finest academic standards the Bishop met with the Deans of Orthodox Theological Institutes in Europe, and together they designed a program leading to the License in Theology, a degree equivalent to the B.A. in the American system of education. Many graduates from the Balamand School joined the Theology Institute, and most Bishops in the Antiochian Orthodox Church at present are its graduates.

The Theology Institute was formally proposed by Bishop Bshir of North America. He also provided the funds to erect the building. The Bishop made his proposal on condition that Bishop Ignatius launched and directed it. Bshir's successor, Bishop Philippus (Saliba), continued the North

to entertain the thought of violating an ecclesiatical norm. The lawyer presented the overwhelming facts falsifying the rumor, and the tribunal wound up its business by warmly congratulating our Bishop for his good work and roundly condemning the rumormongers.

The Dayr consisted of two churches, the main one, the church of Our Lady of Balamand, and the smaller church of St. Georges. The Bishop restored both churches, repaired the icons, and with the help of the Department of Antiquities, restored many of the rooms and halls that needed first to be excavated. Amongst these halls was the large, tunnel-like edifice which we now call the Main Hall, and which serves as a magnificent venue for music recitals and lectures, attracting a wide audience from all over Lebanon. Special church glass was brought from France to beautify its spectacular windows. Meanwhile, funds for all this work of restoration – halls, rooms, cells – were donated by generous Orthodox philanthropists.

The icons in the two churches were very special, representing various schools of icon painting. They are venerated by the entire Orthodox Community, and it was a sad day when during Lebanon's internal war in the 1970s they were all stolen in broad daylight by militia members.

Somehow the icons – except one, the Judgment Day – were salvaged by President Amine Gemayel, who bought them from militiamen and returned them forthwith to Balamand. The Judgment Day icon is to this day greatly missed by all those who saw it and were blessed by it.

converted. He saw in it a hidden treasure and committed himself to restoring it to its historic glory. To Chehab, the Dayr complemented the great archeological treasures of Byblos on which his team was working most assiduously.

All good work, however, is subject to defamation. The restoration of the Dayr became material for trouble makers, of whom there are always plenty. Rumor spread like wild fire, that Bishop Ignatius had sold the Dayr to the Lebanese Department of Antiquities. And the evidence was there for all to see: workers from that Department were all over the place, digging, classifying, cleaning, rearranging. Word reached the Patriarch in Damascus. Rumor can often be convincing. The Bishop, however, took it lightly. Not so the distant Patriarch. The Bishop was summoned to come forthwith to the Patriarchate. Rumor, he now realized, was beginning to take the form of fact, and he wondered how best to combat such a silly tale. Sure enough, he arrived in Damascus and found a tribunal of the Church about to convene. A prosecutor, never a friend of our Balamandi, addressed the tribunal: "The Bishop, as everybody knows, has sold the Dayr, and he has no authority to do so. The power to sell lies with the Patriarch and the Patriarch alone. Now the land is sold, albeit illegally, and it has become the property of the State of Lebanon." Before the Bishop was given a chance to respond, others in the tribunal attacked him without the slightest interest in verifying the facts. Then, all of a sudden, a member of the tribunal, a lawyer, refuted all the accusations and hailed the Bishop as a hero who had found the Dayr in dilapidated condition and restored it to its glory. Of course, the lawyer declared, the Bishop had never sold the Dayr, could not sell it, and was definitely the last person in the Orthodox Church

Autostrads meant development, new construction, new building opportunities, new expansion for existing villages and hamlets on the peaceful coastline between Tripoli and Beirut. Landowners lobbied the Government to swing the highway towards their property. The closer the land to the autostrad, the more valuable it becomes. Fortunately for the Bishop, Lebanon had a President who admired him and respected him greatly. That President was Suleiman Frangieh from Zgharta, a Maronite village nearby. Frangieh visited the Bishop and offered his help, and the Bishop was ready with his request to have the blessed autostrad bless the already blessed Waqf by going through it. An engineer, Mr. Clovis Maaluf, advised the Bishop on a road that would connect the Dayr to the new autostrad. The new road would constitute liberation from the circuitous route he had to take through the back villages to reach Tripoli, and to have easy access to the coast, to Beirut and to the rest of the country. The road was indeed liberation, and he was proud of it. The potential of the Bishop as developer, as planner, was beginning to be realized. His relationship with President Frangieh was a great help, for in Lebanon, as in most developing countries, little can be achieved without political clout behind you.

The 1960s were a period of transformation. The Dayr that had been the grazing ground for goats was rapidly becoming a major religious and cultural center. The Dayr was all potential, an old church, virtually a fortress of the 12th Century, totally neglected. The Bishop persuaded Maurice Chehab, the Lebanese Director of Antiquities, to visit the Dayr. He did so – and was immediately

were dried, the good parts preserved and the bad parts discarded. But who was to tell which the good, which the bad? Confident in his decision, he took the crop to the Regie Company and waited for payment. To his dismay he learned that the part he had discarded was the good part, and what he had to sell was of no value at all. One learns the hard way. He learned not to plant tobacco again. A good decision. Not only did he not smoke; he did not approve of others smoking.

The produce our Bishop liked most after that of the olive tree was that of the almond tree, most generous in its flowers, and most delicious in its fruit. The almonds at Balamand are the best in the region, and although this tree has become virtually extinct in the central part of al-Kurah, it has survived on Balamand Hill, much to the pleasure of all the Balamandis, particularly of the growing student hordes in the school, the Institute, and more recently the University.

Opening Up the Monastery

The biggest challenge to the Bishop was access to the city, a road to connect the Dayr to the main Tripoli-Beirut road. In the early 1960's the Government was planning to transform the small two-lane road from Tripoli to Beirut to a major highway. In the language of the times it was referred to as the "autostrad" (obviously in imitation of the major highway system introduced by Adolph Hitler in the 1930s). The term "autostrad" is still used in Lebanon to identify, with some pride and a little exaggeration, every major road in the country.

Waqf is a trust of the highest moral order and the idea of selling it was to the Bishop not without sinful implications. Therefore, how to use it to survive? Having had no agricultural experience, he had to rely on someone. He needed a staff to lean on. That staff was Mr. Ibrahim Najjar, from Bishmizzin. The two had met briefly before. To the Bishop, Ibrahim was a good friend, a true son of the Church, a shrewd businessman, and the ideal counselor for the new occupant of the Dayr (Monastery). Ibrahim, a son of al-Kurah and a major owner of olive groves himself, was best qualified to advise on the olive tree and its uses. His advice was followed blindly, and with good results. Not all the Waqf was in olives. There were groves and groves of citrus trees – orange and lemon; there were large areas of brush oak, too thick to penetrate. The oak would now be used wisely for making charcoal, a major source for fire – fire for cooking, fire for heating in winter. And there were, on the upper slopes of Balamand Hill, tracts of land simply left free for goats and sheep to graze, desperate for better use.

The curious Bishop consulted Ibrahim as to how he should use al-salikh (land with no trees). Agriculture, like all industries, is subject to seasonal fads, and the fad at that time was to invest in tobacco plants for sale to the Regie Company, a Lebanese State monopoly for trade in tobacco. And tobacco he planted. He examined the plants daily and was impressed by their fast growth, by the beauty of the shiny green leaves, calculating the profit he would reap from this venture. A time to sow and a time to reap. Harvest time was a big affair. The plants were cut, they

the faithful to Our Lady of Balamand with the hope of securing Her mercy and grace. A son falls ill, the parents donate a piece of land to Our Lady of Balamand as an act of supplication so that the Lord through the intervention of the Virgin Mary will cure the sick child. Some people even donated land to the Waqf to escape taxation. There is also evidence that the Monks bought land which they felt would improve their income. It should be remembered that land at the time, which meant land in the absence of developmental projects, was not worth much. Throughout the years the Monastery became the owner of large tracts of land. The countryside around al-Kurah consisted largely of olive trees, vineyards, orange groves, or just plains that could be cultivated in growing mostly wheat and barley. The soil, however, rewarded you only if you were conscious of it, only if you cared for it by ploughing, fertilizing and irrigating.

Accordingly, you can be rich in land and yet poor in wealth. Waqf, to a man of conscience and of the cloth, is just what it is, Waqf. In other words, it was land in the custody of the Monastery for the care of the Monastery, not to be bartered or sold. The Bishop could hardly believe let alone tolerate the thought that a Patriarch would sell what was entrusted to him. And yet, this had happened from time to time. The Bishop was particularly angry at his predecessor for selling a choice piece in the village of Bterram. This plot of prize olive trees, hundreds of years old, had been sold to the cement factory, which uprooted the trees and used its rich black earth for manufacturing cement – a double crime in his eyes.

By the 16th Century, however, we find the Monastery as a Greek Orthodox institution, run by Orthodox Monks. The Monks wrote manuscripts, engaged in agriculture, and provided a haven for the Kurah people. In the 19th Century a school was established to prepare Priests by teaching them reading, writing, and interpretation of the Holy Book. The school, like the Monastery that housed it, went through many ups and downs until it gained the stability and the prestige it now occupies. By the time Bishop Ignatius arrived it was perhaps at its lowest point.

The Monastery was deserted and barren – no water, no electricity, no sign of life. There was not even a direct car route to it. A car arrived through Qilhat, the nearby village, once a week, and the Bishop depended on it to get his basic needs. For his first dinner at the place, he and Father Yuhanna had one loaf of bread. There was no sleep that night. No one had told the new occupant about the mosquitoes of Balamand. These notorious insects swarm Balamand Hill like the locusts of biblical times. The invasion starts at about six in the evening and continues throughout the night. The creatures whizz by with a piercing noise that renders sleep impossible. They sting, they irritate, they compel you to engage them in battle. No mosquito net in sight that first night, no balsam to neutralize the effects of these invading hordes.

The Bishop sought a challenge at Balamand, and he got it. The first question that faced him was how to live, how to survive with no income and no patron. There was the land, lots of it, the Waqf of the Monastery. The Waqf was mostly land donated by

CHAPTER V

Bishop at Balamand Monastery

With the permission of Patriarch Theodosius, Bishop Ignatius left for Balamand, telling His Beatitude, "Do not expect remittances from me." The Patriarchate, as is well known, depended for part of its income on remittances from Patriarchal Monasteries, of which Balamand was one. The Bishop arrived at Balamand in the summer of 1962. He had with him a Priest, Father Yuhanna, and a passe-partout worker who served as guard, gardener and errand boy.

The Balamand Monastery was built in 1157 by the Cistercians, a Catholic order of Monks. The Cistercians came to the East in the wake of the Second Crusade to provide the Crusaders with moral and religious guidance. The occupants of the Monastery in its early days consisted of Monks and field workers. In the spirit of medieval conflicts and warfare the Monastery took on a military form for defense purposes, exemplified by small high windows and slits in the walls for shooting arrows. The Cistercians chose Balamand Hill as a watchtower over the surrounding terrain and seashore. They ran the Monastery for a little more than a century before they withdrew under pressure from the Muslim Mamluks of Tripoli. Little is known about the Monastery in the period between the departure of the Crusaders and the invasion of the region by the Ottomans in 1516.

Protestants rendered Lebanon an arena for sectarian competition in opening schools and in establishing a highly diverse pattern of education.

Our Archimandrite was vividly conscious of this external competition for the soul of the East. He was concerned by the relative ease with which Protestant and Catholic missionaries were converting Orthodox youths, especially from the poorer villages of Lebanon and Syria. He resented this intervention, and his resentment enhanced his determination to build Orthodox schools and stop Orthodoxy in the East from melting away.

In 1961 the Archimandrite was elected Bishop and appointed Assistant to the Patriarch (Wakil Batriarki). He chose the title of Ignatius IV. However, he did not feel at home in an administrative position in the Patriarchate. He asked the Patriarch Theodosius (Abu Rjaili) if he could be delegated to the Balamand Monastery in North Lebanon. "The Monastery is in ruins," said the Patriarch. "How can you survive there?" The Bishop answered, "Worry not, your Beatitude. Where I will be, there will be no ruins."

The Patriarch authorized our man to go to Balamand. To resign his post as Wakil Batriarki, he needed the approval of the Holy Synod that had elected him to that position. With Patriarchal blessing, he wrote his resignation from the post and sought the Bishops one by one, securing their approval to resign from his post at the Patriarchate and to be assigned to the Monastery at Balamand. When they met subsequently as the Holy Synod, the Bishops gave their unanimous approval.

its influence by resuscitating the Byzantine tradition. Uppermost in Greek policy was maintaining Greek as the official language of the Antiochian Orthodox Church. Greek as the language of the Orthodox Church in the Arab East had been declining since the 19th Century. As Greece consolidated its independence from the Ottomans in the 1820s, it began to look outward towards the Orthodox Church in the Arab East with an attempt to secure a political foothold there. It was helped by the fact that some of the Orthodox Priests, Deacons and Bishops had received their higher theological education in Greek Universities and Seminaries.

There was an additional element now coming from London and Paris in the wake of the Allied Victory in the First World War and the imposition of French and British mandate over Palestine, Iraq, Syria and Lebanon. French, English and American educational systems were also infiltrating the region and dwarfing the Russian religious-type secondary school system.

By the middle of the 19th Century American evangelists were building schools and hospitals in the Middle East. The Protestant missionaries came to save souls by converting Orthodox, Catholics and Muslims to Protestantism. They succeeded more with the Orthodox, who were eager to educate their children in the new schools at the cost of converting to either Catholicism or Protestantism. Establishing schools and universities was a means to a holy end. The Catholics, challenged by Protestant inroads, responded by establishing Catholic schools. Competition between Catholics and

churches, monasteries and health clinics. One of its main objectives was to attract Russian tourists to the Holy Land. The schools of the Russian Society taught Religion, Arabic, Russian History, the Humanities, Mathematics and the Sciences. Not only was teaching free, but students were provided with books, clothes, and were given medical attention.

Many a prominent writer in the region emerged from these schools. Perhaps the most important amongst them was Mikhail Naimeh, the philosopher and mystic who had close literary ties with Gibran Khalil Gibran. The schools of the Three Hierarchs in Lebanon, al-Siyyi in Damascus and the Orthodox School in Homs, are a few of the schools that attained a high level of proficiency and influence. In 1913 the Russian Society, in imitation of Catholic and Protestant missionaries, decided to open an Orthodox University. Rapid developments leading to the First World War intervened, and not only the idea of the University was abandoned, but the school system itself was gravely affected. The ties between the region and the Imperial Society were weakened, not only with the rise of the Soviet Regime, but also with the establishment of the State of Israel and the subsequent separation between the Imperial Society in Jerusalem and the schools in Syria and Lebanon. These developments not only weakened the schools but virtually stopped Russian pilgrimage to the Holy Land, and drained Imperial donations to Churches in the form of icons, chandeliers, and clerical attire.

While Russia interested itself in schools, Greece tried to exert

including support for education. The first such school in Beirut was the School of Tlat-Aqmar founded in 1835. The school graduated thousands of Lebanese from all faiths and all regions. Many of the leading intellectuals of the 19th Century were its graduates. In 1880 Emily Sursok, a leading Orthodox socialite, established Zahrat al-Ihsan, the first such school for girls.

Secondary schools in the Orthodox community in Lebanon, Syria, and Palestine were multiplying, partly due to Orthodox Russia. Before it fell to the Soviets, Russia took on the cause of the Greek Orthodox minority in the Middle East. In the 19th Century the Ottoman Empire was known in the West as the "Sick Man of Europe". The Empire was dying, and European nations were hovering over its potential corpse, trying to penetrate it in many ways, one of them being the diverse Christian minorities and even the non-Sunni Muslim minorities.

The Russian Imperial Society for Palestine under the Tsar built over 114 schools in the region, many of which are still operating. The Society was established in 1880 by members close to Tsar Nicolas II, who became its Honorary President. Russia considered itself the protector of the Orthodox in the Ottoman Empire. Similarly, France considered itself the protector of the Maronites and other Catholic Communities in Syria, Lebanon and Palestine.

For some strange reason the British cultivated the Druze.

The Russian Imperial Society built not only schools, but

Archimandrite felt good starting from ground zero at al-Bisharah. He enjoyed being there at the creation of institutions, especially if he were to be the driving force behind them. He stayed at al-Bisharah for nine years. The school taught in French and in English to better prepare its graduates for admission to the foreign private universities in Beirut, namely the American University, and St. Joseph. The latter was founded by the French in 1875, exactly a decade after the Americans founded "The Syrian Protestant College", now AUB.

The School was open to all students of all faiths. All students, however, were encouraged to go to church, not to be converted but to see the Church as it really was, not simply as they were told it was. Knowing a faith from its own sources was always a cardinal principle for Father Ignatius.

Except for the upper two classes, al-Bisharah was exclusively a boys school. It attracted about 700 students, who were carefully supervised, giving the school a distinguished reputation. As his imprint on the school was special, it was known as the school of Father Hazim (al-Abb Hazim).

The Russian Educational Role

As Protestant missionary activity was beginning to attract Orthodox youths, some Orthodox aristocratic families in Beirut were challenged to respond by establishing Orthodox schools themselves. These families were in contact with Europeans culturally and commercially and learned a great deal from them,

to return and to serve it as the Bishop directed. As he had departed on his educational journey to Beirut on a truck, he returned from Paris on a cargo plane – the only passenger. Upon his return, he was ordained Priest of the Church, being simultaneously promoted to the rank of Archimandrite. He was assigned by Bishop Iliyya to teach at Kulliyat al-Bisharah – a Greek Orthodox high school carrying the prestigious name of College (Kulliyat). It was so called after the donor of the building, Mr. Bisharah Sabbagha.

The building, a dilapidated structure, was an orphanage, not suitable as a school. While others felt it was beneath the promising Archimandrite to fix this unfixable place and convert it into a school, he nevertheless accepted the challenge, and soon transformed it. The fact that the school was close to a church meant a great deal to him. He wanted the Orthodox students to be close to their Church, and the non-Orthodox students to be, if only partially, acquainted with the Orthodox and their institutions, and with their concepts of tolerance and freedom.

He took on the post of director in 1954. The school started with a beginners' class. Each year it added a class, until it had all the classes leading to the Baccalaureate. At times, the new Archimandrite decided to omit a class and, accordingly, the school reached the 12th year of the Baccalaureate program in nine years instead of twelve. The Orthodox had by then three other schools in Beirut, Zahrat al-Ihsan, Mar-Elias Btina, and the school of Tlat-Aqmar. The Tlat-Aqmar was the oldest. The

never too far from his Orthodox faith. These characteristics in his person served him well in discourse with other religious figures, and with secularists and agnostics. He was confident spiritually and free intellectually.

The reconciliation of faith and reason came naturally to him. It was very simple.

God created man. God granted him mind and spirit, and God does not create things that have no value, no purpose. Mind – the light of reason – was man's guide in this world in his search for hidden truths in God's Creation. As for the spirit in us, it was the recipient of revealed truth, to be accepted without question, as St. Paul indicated in his letters to the fledgling Christian communities in the towns and villages of Syria, Greece and Asia Minor.

Even the Early Fathers had to resort to their broad cultural background and to Greek learning and Greek rationality to find the right words to define their faith and to communicate their message to non-believers. No matter how man tries, he remains constricted, bound by the limitations of his language from fully grasping the Godhead in him. God cannot be bound by words.

Al-Bisharah School

Having completed his studies at St. Sergius in 1953, the Shammas returned to Beirut, to Bishop Iliyya who had sent him abroad to complete his studies. He owed it to his Church

CHAPTER IV

Teacher in Beirut

The Shammas submitted his thesis at St. Sergius under the title *Incarnation and Redemption in the Theology of St. Athanasius*. Incarnation and Redemption remain the central pillars of his theology and of his perception of the world. In writing, he realized that learning for him was not so much lectures and dialogues as reading original texts, and works on the fundamentals of Christianity. Reflection on the texts represented a type of freedom. Only this way, he learnt, does one exact the meaning and derive the message one needs.

His studies in philosophy in Beirut and Paris made the task of interpretation attractive. He knew the doctrine, he knew the texts, and he knew the people whom he was addressing. They are the ones he encountered in life, the general Orthodox community in Syria and Lebanon – humble, faithful to the Church and generally not sophisticated. His was the challenge to address them in their own language and with their own reference points.

The fact that the Shammas had studied mathematics and philosophy enhanced his grasp of Christian theology and sharpened his arguments.

Reason, rationality, the scientific and the pragmatic were

of their time, pictured Christ as King surrounded by legions. This was not the Christ of Ignatius the Antiochian and his peers, who were martyred before the days of Byzantium. They looked at Christ directly, not necessarily through institutions. They believed that Orthodoxy would prosper as long as it looked at the present and interacted with it, but always with the future in mind. Orthodoxy, they believed, must look at the present. Why talk about kings, armies, and prisoners in our liturgy while these departed long ago with the departure of Byzantium? The Shammas encapsulated the worldview of these great teachers. He learned early on to look at Orthodoxy as a living religion dealing with the now and not weighed down by the hardened accretion of history. Steer away from corpses, he always said.

The reader may wonder why I give so much space to these European and Russian thinkers and theologians. Why depart from the main subject, the Shammas studying there? These are legitimate questions. But for one who knows the Patriarch well, it is important to explain him through the teachers who had so great an impact on him. What they write in sophisticated essays, our Patriarch explains in simple terms to the simple people listening to him as they participate in the Holy Liturgy on Sundays at the Mariamiyyi Church in Damascus, at the Church of our Lady at Balamand and at Mar-Elias Shwayya. Philosophy and theology are part of his daily language with the people who meet with him on numerous occasions at an everyday level. He wishes to communicate and to influence, and hence must resort to language and symbolism familiar to the people he addresses in church.

There is a streak of particular importance to us in the writings of Schmemann. He recognized the fact that Orthodoxy was a minority religion, divided, fragmented, yet it was in the deepest sense triumphalist. Its triumphalism issues from its authentic being, its absolute faith in Christ – the Crucified and Resurrected – and in the truth of the Early Church, pure and simple. This triumphalism is celebrated in the Sacraments. The glory of the Holy Liturgy, writes Dostoyevsky, lies in the mystery of the proceedings. The Liturgy emerges as an opera of a historic triumph.

Meyendorff taught Church History and Patristics, and also served as Dean. His work on the 14th Century mystic Gregory Palamas was inspiring to our Shammas. He espoused the teachings of Palamas, who insisted that God became human, and therefore humans can experience God in a living way. To him, the true Orthodox Church has remained faithful to its original legacy, to the teachings of "the Apostles and Prophets". Tradition belongs to Church history; all others are traditions of different quality. He faithfully followed both the scriptures and apostolic tradition.

Schmemann and Meyendorff and their compatriots at St. Sergius launched a Renaissance in Orthodox study. They emphasized substance at the expense of form and set proper methodologies for dialogue. In a way they attempted to infuse the Russian Spirit into Western European culture. They returned to early Christianity and presented it to the world in their own Orthodox way, not in the Byzantine way. The Byzantines, in the imagery

preaching Orthodoxy and in broadcasting his message to the Soviet Union. Of all the Russian theologians, Father Schmemann left most impact on our Shammas. Schmemann was an émigré from Estonia. He grew up in Paris, and led a life of monastic and academic dimensions. He blended the life of prayer with the life of the thinker, writer, preacher. Like all theologians, Schmemann was influenced by those who came before him. They were not all Orthodox. There were Hegel, Kierkegaard, Karl Barth, to name a few. Schmemann was a prolific writer, dealing mostly with the Patristic tradition and its Christian understanding of life. Schmemann's influence was of universal proportion as he moved from Europe to the United States, from teaching, to writing, to broadcasting Christian messages of hope to his beloved Russia under an anti-Orthodox ideology.

In listening to the passionate sermon of Ignatius, you are there with maistream Orthodox theology, a theology that was fully explored at St. Sergius. To Schmemann the Church is the totality of lay and clergy governed by God above. The Church is the body of doctrine, order, and liturgy, and it will continue to be so till God draws the curtain on historical time. The Church therefore is not a democracy. It is a spiritual continuum from Jesus to His Disciples and to the properly ordained Bishops through the intervention of the Holy Spirit.

With the Incarnation, the two worlds of spirit and matter have been united. They are no longer opposites. Rather, matter itself has become sanctified by the death of Christ, and His victory over death.

to read it, how to interpret it. Words came in response to needs under a pervasive moral imperative. For example, the Ten Commandments arose from the need to keep the Community together and to reduce conflict amongst its members. Naturally, the Bible was influenced by religions, beliefs, and behaviors of the peoples of the Near East. Egyptian and Phoenician influences are obvious in the psalms. The Prophets of the Old Testament were concerned with events around them, with the fate of a people, and with the conditions on earth in general. To them, things did not just happen. A God was there who foresaw all that existed. They wrote down what they felt pretty strongly to be right, to be the truth. When the author wrote about creation, he wanted to say that God and only God is the Creator. He created all ex-nihilo. He created man in His image. He meant that man was begotten to reach beyond himself, to the other, to God, to His creation, and to other beings. The concept of One God evolved in the books of the Bible. The concept was not strong and clear in the early belief of the Hebrews. When Moses left his people for forty days, they seemed to have turned away from God, and were worshipping the bull. Faith grew from the uncertain to the certain.

Orthodox Theologians

While our Shammas was drinking deep from the White Russian fountain at St. Sergius, there were many thinkers who influenced him in particular. Two stand out – Father Alexander Schmemann and Father John Meyendorff. Schmemann focused on liturgical theology as an expression of Christian faith. He was active in

Although he held a BA from AUB in philosophy, he felt the need to deepen his knowledge in philosophy, history, and theology. This required four years of study at St. Sergius leading to a degree in Orthodox Theology. As he recollected his days in Paris, he was most impressed by the piety of his Russian professors, the simplicity of their lives and the humble conditions of their living quarters. What the Institute lacked in physical comfort, it made up for in intellectual rigor. In Paris our Shammas interacted with Catholics, Protestants, and atheists, and drew his own conclusions. He discovered the other as the other thought of himself, and deeply appreciated the diversity of the human condition. If people were different, if faith differed, this had to be God's will. He said to himself. "Now, I know God created me, but He created the other as well." This was pivotal to his thinking. It is natural therefore to witness him in Paris conducting dialogue regularly with Catholics, Protestants, and atheists. In time, his circle expanded to include representatives of other Christian sects.

With the exception of the writings of Buber he did not delve much into contemporary Jewish thought. His intense concentration on Christ and the Gospels left the Old Testament in the background. He entered the Old Testament world through Jesus Christ, and that made all the difference.

When I asked the Patriarch about the Old Testament, he spoke in the spirit of his Russian teachers. His concern was that a God prevailed over the course of space and time, and over events in the human race. The important thing about the Bible was how

recalled early Christianity, indeed Eastern Christianity, as a religion based on faith, humility, love, and tolerance for the other. These principles became the cornerstone of his philosophical-theological outlook. He recalled listening to his father teaching that Christ was a teacher, a messenger to the poor and to the hopeless, a teacher who taught people through parables familiar to them.

To Tillich and to Barth, the Old Testament is to be understood through the New Testament, not the other way round. Jesus is the way to God, and the Bible should be read through Christian concern for the living God. Our Shammas reflected on these teachings and appropriated them. He drank deep from Europe, but he also had his own strong predilections. In considering the impact of the Christian Existentialists on the Shammas, we should not lose sight of the influence of Gabriel Marcel, author of the book *Mystery of Being and the Existential Background of Human Dignity.* The mystery of being, the wonder of existence, the person of Jesus, became cardinal principles in the Shammas' religious outlook.

At the Institute, the Shammas had to learn Greek to meet the requirements of some of his courses. As he was studying "Salvation in the Theology of St. Athanasius" for his thesis, he had to seek sources on the Saint in France and in the United Kingdom. In the U.K. he used to spend two months in the summer, mostly at Oxford University, where he developed strong ties with Anglican theologians.

was posed by Nietzsche, Hegel, and Schlegel. In Denmark Sören Kierkegaard wrote the epochal book *Either Or*. To these thinkers, the universe was fundamentally paradoxical. To understand it you have, as Kierkegaard put it, to make "a leap of faith" and commit to your choice. God, it was held, could best be understood by His Creation. We meet Him through His Creation. To live authentically one must make a choice and live by it. To make a choice was rather easy for the young Shammas, who was now in Paris studying under the auspices of White Russian theologians and partaking of the Christian Existentialism that was permeating European thought.

Existentialists were of two types – the materialists and the theists. To Nietzsche, the author of *Thus Spake Zarathustra*, and Jean Paul Sartre, the author of *Nothingness*, the world is perceived in the spirit of despair. To theists like Martin Buber, Paul Tillich, Karl Barth, Rudolph Bultmann, Reinhold Niebuhr, Nikolai Berdyaev, Karl Jaspers, Gabriel Marcel and Miguel de Unamuno, the world is perceived through the spirit of wonder. The goal of Christian Existentialists was spiritual. To them man exercises a moral choice through responsible freedom. The choice is to be lived and affirmed even in the face of the ambiguity and paradoxicality that characterize our being.

The intellectualism of the existentialists and the spirituality of his Russian teachers, coalesced to mould the Shammas' mind. What he learned from them reminded him of what he had learned in his humble, pious, ancient town. There, he had

inclinations. He read Catholic thought as represented then by Jacques Maritain, by Pierre Teilhard de Chardin and by European Christian Existentialists. In the writings of Maritain he found philosophic depth. To Maritain, what the mind knows is identical with what is. He saw no conflict between faith and reason, and he revived Medieval Aquinas and enriched his teachings through his acceptance of a single natural law governing all human beings. Teilhard was challenging. He was a rebel Jesuit who appropriated science and the scientific method, and accepted evolution as leading to a deeper consciousness of God. In the 1950s Teilhard was not only a fad in Paris, but also in Beirut amongst the new literati, who were searching for spirituality in the context of the new scientific ethos.

Interaction with New Ideas

From Mhardé, the town of Orthodoxy, from his father and mother, from all the institutions of this town, the Shammas took on his spiritual education. From St. Sergius, from Paris, from the great philosopher-theologians of Europe, the Shammas cultivated his mind and deepened his perspective of God, man, society, and culture.

In effect, the Shammas interacted with the main ideas that had motivated Europe for the past three centuries. The scientific era was challenging entrenched institutions and forcing them to respond and seek new paths on old terrains. In Russia, Pushkin, Gogol, and Dostoyevsky were leading a Slavic revival with Orthodox Spirituality. In Germany the greatest challenge

in Orthodoxy, anxious to salvage it from atheistic Communism. Their impact on Europe was such as to make the Catholic Church take note of them and admire their spirituality and humility. They may well have effected a major change in Catholic thought, which had previously regarded Orthodoxy as a dissident church rather than a major religious institution in its own right To emphasize the spiritual character of the Institute, both faculty staff and students led a simple ascetic life, doing the menial work themselves. Two decades after its founding, the Institute began to offer the Doctoral Degree.

The St. Sergius Institute and the Paris that hosted it left lasting imprints on the mind and soul of our Shammas.

Paris as Cultural Pole

Since the early Ottoman reforms in the 1830s, Paris had been the main attraction to the new generations in Istanbul, Cairo, Beirut, Damascus and Baghdad. It became the Mecca for the educated, for the reformers, for the revolutionaries, and now for theologians with a philosophic bent. Paris was the source of the new ideas that were to shake our region. The writings of the French philosophers, the French encyclopedists, the French artists, novelists, and poets attracted all reformers from all climes; and most of them sang the praises of the city, setting it as a model of reform in contrast to the authoritarian and traditional regimes of the Ottomans and the Eastern Potentates. The Shammas was not far from these European thinkers. He took from them what conformed to his natural spiritual

Architecture, the Architecture of Russian Churches, Church History, Orthodoxy and Literature, and Church Laws.

St. Sergius Institute

The St. Sergius Orthodox Theological Institute was Russian through and through – physically poor, spiritually rich. It had no Greek connection. Bishop Iliyya referred to St. Sergius as al-Tikhshibi (the barracks), emphasizing the dilapidated condition of its buildings.

Russian refugees from the Soviet Regime began to pour into Paris from 1920. In 1922 Lenin exiled leading Orthodox theologians, who found fertile ground for their religious works in Paris. Of the millions who escaped the Marxist regime, hundreds of thousands came to Paris, and most of them spoke French fluently. In 1925 the Exiles bought a few small old buildings and this housed the new Institute. It was modeled on the four Orthodox academies under Tsarist Russia in St. Petersburg, Moscow, Kiev, and Qazan. The first Dean was Father Serge Bulgakov, a person of interesting background. In his youth he was a Marxist atheist, but after the 1905 Revolt he was converted to the Church and became a Priest. The purpose of the Institute was to prepare leaders for the Orthodox Church and to educate laymen in their faith. The French Government, intent on helping the Russian emigrants, provided them with space and facilitated their work. The Institute attracted a dozen Russian Orthodox thinkers in theology, philosophy, literature, and economics. The Russian theologians were deeply immersed

CHAPTER III

Paris and the Impact of St. Sergius

Having done well at AUB, Bishop Iliyya al-Salibi sent our Shammas to St. Sergius, and allocated L.L. 100 per month for his living expenses. For the frugal and mystic Shammas, it was just enough to get by. Inclined to a private life of study and prayer, he knew little and cared little for what others found in the elegant capital of France, indeed of Europe.

The frugality that characterized the Shammas in Beirut characterized his life also at St. Sergius. With the L.L. 100 per month scholarship, and the meager savings he made while teaching part-time in Beirut, he could just make ends meet. With the help of his Russian teachers he found a humble room in a humble house in a humble neighborhood. The house was owned by an old lady who needed help. The Shammas took on house chores and thus reduced his rent. The room, heated by an old stove, had a sofa that served as bed, chair, and study table. To add to his income, the Shammas taught Arabic at the Sorbonne. The program at St. Sergius gave ample scope to both teacher and student, and therefore the Shammas could move at his own pace and concentrate on his area of interest. His extensive reading coupled with a good background in philosophy at AUB, made him progress faster than his peers. The program included inter alia the Old Testament, the New Testament, the Early Fathers, Church Doctrine, Orthodoxy and Art, Orthodoxy and

The University in the 1940s was a battlefield of political ideas and of ideologies; few, very few of them were realizable. The more audacious, the more exciting. The Shammas was not ideological. He saw himself as a lonely student from Mhardé who must work hard and realize his ambition in education and the ambition of his parents, who were following his achievements virtually day by day. He delved deep into philosophy, logic, and history to prepare himself for graduate work in theology. The affairs of the world passed him by, unnoticed; he was searching for the meaning of things beyond appearances, and perhaps for a role as an educator in the bosom of the Church, a step in the proper tradition of al-Mu'allim.

The Shammas continued to live in the Bishopric, serve in church, and abide by the strict norms that the Bishop set. Discipline worked in his favor. He read extensively and lived his life inwardly, fully, and enjoyed it. Bishop Iliyya al-Salibi liked the Shammas and recognized his singularity. He encouraged him to study church music and to chant properly. After receiving his BA in 1945, he taught in the secondary school, Tlat-Aqmar, in which he had studied before. He was now too restless to remain a teacher at a high school. He wanted further education, theological education; and for the Orthodox there was the great school in Paris. There, the St. Sergius Institute founded by the White Russians became the bastion of Orthodoxy, attracting young and promising Orthodox students from Russia, Europe, and the Middle East.

The cosmopolitan atmosphere broadened his experience, strengthened his command of English and French, and prepared him for effective participation in Church international organizations. Early on, he was active in the deliberations of the World Council of Churches. He was conscious in the late 1940s of the meetings taking place in Geneva, Switzerland, between Orthodox and Protestant theologians. The Orthodox were always active in St. Sergius in Paris and they took the leadership in these meetings, which opened the door wide for future intra-Christian dialogue. He felt then that the Catholic Church, to the extent that it considered itself "The Church", maintained a certain distance. It showed interest in the dialogue, but was not truly engaged.

As an Orthodox in Ras Beirut, he was eager to meet with Protestants who had previously been Orthodox. He was probing for a reason behind their conversion. Was it religious? Was it economic? Was it desire for education? He felt that Orthodoxy was rich enough to meet the requisites of all its educated youth. Such inquiries led him to a rigorous reconsideration of the Greek Orthodox Church as an institution, as people, as commitment. Herein lie the roots of the Orthodox Youth Movement, now known as al-harakeh (movement). If the Movement had an impetus from abroad it was from the few dedicated Russian theologians who had fled Soviet Russia and sought a revival of Orthodoxy in the St. Sergius Institute which they founded in Paris.

he was clearly on the broad Arab reformist side, and he stood for the just Arab causes, especially in relation to Palestine.

Life at the American University of Beirut meant life in Ras Beirut. Since the founding of AUB in 1865, Ras Beirut had developed into a cosmopolitan center. Hotels, restaurants and coffee houses attracted intellectuals from the entire region, from as far off as Iran and Afghanistan. The freedom Beirut enjoyed then made it a haven for all exiles from the highly traditional, conservative, and authoritarian regimes of the Arab World. Ras Beirut was also a vortex of religious dialogue. Protestants had not only established a university; they also established an Institute for Christian Studies, and youth movements, and Christian study groups. The British moving into Ras Beirut, under the umbrella of the Americans, established an office for the British Council, and in time a British Hostel attracting students from AUB. The Hostel consisted of dormitories, a library, a lecture hall, and a hall for musical events. If there was any place in the Middle East where Christian-Muslim relations were at the highest level of civility, it was Ras Beirut. I mention this because our Shammas immersed himself fully in all these organizations. He was an active member in Protestant discussion groups; he also sought dialogue and cooperation with Catholic organizations. He further found himself in the midst of heated discussions on national issues, always from an intellectual non-partisan perspective.

ultimately a university. "Did Mr. Dodge try to convert you," I asked. "No," he answered, "nor did I" – a certainty there with an element of humor.

The AUB years, 1943-45, were decisive years in the Second World War. The political movements that had been brewing in the 1920s and 1930s were now in full bloom. There were the communists funded by the new Soviet Union who opposed Western incursions into the Middle East. There were the socialists – disciples of Marx and Engels, but with an Arab-Islamic twist. There were nationalists of all types, including those from the Syrian Social Nationalist Party who worked for a greater Syria – a Fertile Crescent – philosophized into a nation culled from ancient history. There were the Arab Nationalists who dreamt of an Arab nation of all Arabic speaking peoples from Morocco to Kuwait. More urgently, there was the Zionist Movement that was now carving a Jewish state from historic Palestine. All these movements had their proponents and their opponents at AUB. There were actual Zionists, Jewish students from Palestine, now enrolled in the budding underground organizations battling the British mandate to convert what was promised to them as a "home" into a fully-fledged "state". There were students cheering for the Allies and students cheering for the Nazis. They argued endlessly on campus and in the nearby coffee houses. And at times they had fist fights and stone throwings that led to arrests by the police. Our young Deacon was too busy in his studies and in Church affairs to enlist in any of these movements, although

His friends at the IC were Ghifrail, a cousin of Beirut's Bishop, and later on Bishop Ghifrail (Salibi), who became the first Antiochian Orthodox Bishop in Western Europe, and Ghassan Tueini. Ghassan was his closest friend at IC and at AUB, and the bonds forged in school continued to bind them together for life.

At IC and at the University he stood out as the only student in clerical garb. Indeed, he enjoyed his distinctiveness, and used it to his advantage. Were students to stand in line to register, he felt he need not to do as others did, and just moved forward, all giving way to the young man in black garb. His awareness of being different has since then become a fundamental trait of his personality and of his relations with others. A strong sense of what is proper to the man in black permeates his entire being.

The American University of Beirut

By 1943, when Habib entered the American University of Beirut, he was already a Shammas -- a fully fledged member of the clerical class. At AUB he followed the liberal arts program emphasizing philosophy and education. He had also a special proclivity to mathematics. The University gave him the intellectual freedom to move vertically and to pursue learning with passion. Knowledge became his obsession. He was good enough to be given free tuition, and to become the favorite of the Protestant President of AUB, Bayard Dodge, a descendant of the Dodge family that had been active in missionary work, and in founding schools and

At fifteen years of age (1935), Habib left Mhardé alone, and for the first time. He went by car to Homs. There the youth went to a garage and asked for transport to Beirut. "No," he was told, "we can send you to Tripoli, and a truck is about to depart."

The truck he took without hesitation, arriving in Tripoli late at night. Inquiring about travel to Beirut he was told a truck laden with furniture was about to depart. He took the truck, and it deposited him in a not-so-comely district of the Capital. There he spent the night in a cheap, dirty hotel, and was happy to leave in search of the Bishopric, and of the well-known Bishop of Beirut, Metropolitan Iliyya al-Salibi. For his audience with the Bishop he wore the best suit he had, one tailored by his indefatigable mother. The Bishop looked at the youth, and said, "Thus you come to me dressed in a night shirt." "No, your Eminence, this is a good suit, the best we wear in Mhardé." "Take it off immediately," the Bishop ordered, "and from now on you will wear the ghimbaz." The youth found that he was the only one in school wearing the ghimbaz, and the only one who did not speak French.

From the school of Tlat-Aqmar (The Three Hierarchs) he was sent to the International College (IC), a high school in Ras Beirut preparing students to enter the American University of Beirut (AUB). At IC he excelled, and was always on the honors list. By now he was wearing monks' clothes, again the only one at IC. During that period, in 1941, he was promoted to the rank of Shammas (Deacon).

the trimmings of civilization. Mhardé villagers were active, hard working, and when given a chance under independent Syria, they formed all types of associations. Amongst them were the Orthodox Philanthropic Society, the Society for Good Deeds committed to helping the poor, the Artistic Club promoting intellectual and artistic life in Mhardé, the Society for Dialogue with Neighboring Regions, actually committed to promoting better communication and deeper understanding between the Orthodox in Mhardé and the Muslims in the neighborhood. As the town flourished through remittances from its emigrants in Latin America, the Mhardées bought land, built villas and constructed new churches. As Antiochian Orthodox they held on to the Antiochian traditions and to the original Christianity of historic Antioch.

From Mhardé to Beirut

Early in his childhood, Habib worked in a shop off and on for four years.

To pursue studies beyond Mhardé, father sought the help of the Bishop. By Bishop is meant Metropolitan Ignatius Hraiki from Hama. The Bishop was already acquainted with the youth as he chanted in the church when the Bishop was presiding. The Bishop of Hama sent him to the Bishop of Beirut, and thus to a center of learning that owed its existence largely to the efforts of foreign missionaries over the previous hundred years.

The village had one tiny shop which also served as a meeting place. There was no doctor, no nurse, but certain enterprising men recommended herbs as cures for all kinds of ills, and a few women found a vocation in delivering babies. For advanced medicine or dentistry, people went to the village barber. The child recalls with dread his visits there, and his witnessing the removal of a tooth with pincers generally associated with carpenters and the removal of nails.

If there was a sign of the state called Syria in Mhardé, it was difficult to tell. The state came gradually and surreptitiously through gendarmes (internal security forces). The gendarmes were impressive as they rode horses and wore colorful attire. If anything, they instilled fear and gave, from the very beginning, a negative image of the state as authoritarian.

Mhardé was part of the Archdiocese of Hama. Its Bishop lived in Hama, and came to Mhardé once a year to collect al-Nuriyyi, a yearly donation by the people to their Bishop. The village had three Priests, one for each of the three quarters. As all people went to church and knew the Liturgy by heart, it was easy for the Bishop just to pick out one from the flock and ordain him as Priest.

Indeed, the line between Priest and layman was so thin as to render the move from lay status to clerical easy and natural. In the village, life centered around the church and was fused. Differentiation came later as a dormant culture gave way to

Daily Life in Mhardé

The villagers, now numbering some 20,000, take pride in their village, in its history and its faith. The Church occupied and still occupies an axial place in their life. The little church by the Hazim house is very humble. Once inside, however, it reveals its past Byzantine glory. A huge column of Roman design holds the ceiling, and everywhere around an ancient stone or basin reminds one of a glorious imperial past. The main door to the church is now of wood. It had been a stone slab seemingly impossible to move, but it now sits idly by, a reminder of sturdier days or, as villagers put it, "of a time when men were men". Doors were low to prevent soldiers on horseback from entering. As Christians lived in the midst of an Islamic environment, they naturally incorporated Islamic customs, as, for example, allotting in churches one door for men and another for women. This is not to ignore the latent tendency among Christians also to differentiate culturally between the male and female. People dressed simply, usually in black, a robe covering the whole body. Women always wore head covers; and the way the cover was knotted gave away the status of the woman, married or single.

Villagers ventured out of Mhardé only rarely, and usually only to attend the Holy Feast of St. Georges al-Humayrah near Hama. People walked the fifty kilometers without complaint. The fortunate ones rode donkeys or mules. Horses in traditional Ottoman society were withheld from Christians as they represented power, as animals of war.

mother collected sticks to light the fire. She baked bread and cooked the one meal, taken in the evening from a central pot. Father, mother, and children dipped their bread in the pot and ate. Villages virtually lived on bread, to which something was added, and always in accordance with the seasons. Bread was mostly of corn or barley, not of wheat. If, for example, cheese was available, it was usually in small pieces eaten with lots of bread. People ate what village fields produced. No imports, no exports. During the eggplant season, everyone ate eggplant; during the tomato season people ate tomatoes, with bread and onion. Wheat and barley took on many forms and constituted the main nourishment. Similarly with grapevines and fig trees, they too yielded many fruits that were converted into food and desserts. The Hazims had limited means, but were most satisfied. For the little they had, they learned to thank God and hold to His rules. The mother did her motherly work and prepared the five daughters for life. Preparing them meant appreciation of hard work, cultivation of character and readiness for successful marriage. The two brothers Yusuf and Butrus worked hard with the father to support the family.

The house the family occupied was the typical mud hut of the Syrian plains: one door, one hole in the wall, no window. No sofas or chairs on the inside, no rooms. Just one space with mats on the floor on which the Hazims sat by day and slept by night.

so throughout his life. The teacher in him was always in the foreground. The family treated him differently. While father, mother and children worked to earn a living, the son was spared, and was urged to concentrate on his studies. This was a privilege that weighed heavily on his conscience.

As'ad's school was a one-room affair by the church building. The school and the church were all he had. He did not own land and was therefore of the poorer segment of Mhardé society, but one greatly respected and revered for his character, his position and his uprightness.

Al-Mu'allim was actually the school. He taught Arabic, he taught math, he taught Christian principles. He chanted in church, he knew the tunes. The teacher fused knowledge in his person, and true to his person he was everything to his family. He taught in school by day. He wove carpets by night. Not only did Mu'allim As'ad teach, but he served as reader and interpreter to the villagers who could neither read nor write. A most pleasant role for him was to read to some relative a rare letter from a villager who had dared the Ocean after the Great War and landed in Argentine or Brazil. When the letter contained some cash, it became fodder for talk – and talk amongst the idle population. A new subject.

The girls worked the field as hired hands, harvesting manually and with the aid of sickles the wheat on which the village subsisted. All worked all the time to earn a living. The studious Habib worked on his lessons by candle light. The

remained in Mhardé or close by. Butrus went into business. Yusuf became a well-known dentist, and in time moved his practice to Beirut. The father cultivated Habib, taking pride in him and in the name he carried. The son admired the father. The father could read and write, and the son wanted to read and write. The father was a teacher and had students. The son wanted to be a teacher and have students.

As As'ad's father and mother were simple working people who could neither read nor write, As'ad worked hard to study and to teach himself, and more importantly to put Habib in the long and exciting process of education. Because Habib himself was anxious to learn, the challenge was rendered easier for the father. While the father supervised and taught, the mother actually manufactured copybooks out of paper she bought at the local store, knitting them in her own way into copybooks for Habib and his siblings. The family also made candles for church services, its life rotating around the Church and its calendar.

Father was the role model. He was called al-Mu'allim (the teacher) by all, and Habib was proud to be the son of al-Mu'allim. He wanted to be like him. From early childhood, therefore, he felt different, he acted different, and felt strongly inside that he was on a course uniquely his own. Hence his association with his peers took on a different nuance. He did not curse; he did not use bad words; he concentrated on his studies and on his ties with the Church. He acted like a little Mu'allim. He was serious and remained

religious type, but of the technological age. A plane flies over and they stare with awe and fear, and praise the Lord and Mother Mary. A car of a Damascus potentate arrives at the village square and church bells toll to inform the people of the event. They gather in admiration, shoving forward for a closer look at the new machine.

Mhardé was in the midst of cotton farming and the Hazims worked on collecting cotton, converting the cotton to threads and ropes, and weaving carpets. The girls not only worked like men in harvesting wheat by hand and sickle, but also gleaned in the fields after harvesting for the leftovers, which were sent to the mill and converted to flour.

One learned the basic minimum to get by in the daily life of the village. Reading was intimately related to the Liturgy. Students learned to read the Psalms, to read Job, to read the Prophets, as they had to participate in the Holy Liturgy. They read and they memorized.

The Family

As Habib was the eldest son, he occupied a privileged position in the family hierarchy so his father came to be called Abu Habib. The father As'ad and his wife Merriam Shihadeh had their children in the following order: Habib (future Patriarch), the twin daughters Agia and Sophia, Butrus, Sarah, Yusuf, Zakiyyi and Nadwa. Except for Zakiyyi, who now lives in the United States with her family, all brothers and sisters have

Cultural and Social Life in Mhardé

While the world boiled politically bringing dramatic changes to the region, Mhardé in the 1920s slept in peace. That Mhardé, like all old towns and cities in Syria and Lebanon, is steeped in history, is taken for granted. Of its past we know from archeological evidence that it was of some importance in the Byzantine period. The Mhardé region is resplendent with church mosaics, a reminder of the great cathedrals that rose in that region with the rise of Byzantium. Patriarch Makarios al-Za'im referred to Mhardé as seat of an archdiocese in his book *History of the Patriarchs*. Much of the glory of Mhardé and its region was largely dissipated under the Ottoman period (1516-1918). Economic decline led to massive migration to South America. As the emigrants settled and prospered in the New World, they sent money to their relatives at home and helped in their development. Mhardé belonged to the peasant culture that reflected the tempo of nature and its immutable seasonal cycle. Peasants led a simple life, ate simple food, held firm and simple beliefs, and felt the warmth and authenticity of village life. Mhardé, situated near Homs and Hama of historic fame, learned of developments in Syria from brief visits of its enterprising young men working abroad. Things were happening in Hama, the town nearby. Electricity, telephones and cars were unheard of in Mhardé. Schooling was individual effort at the elementary level – reading, writing, and arithmetic. From time to time the villagers heard of miracles, not of the

it through Islamic art and Arabic calligraphy to become the pride of Islamic Syria and of Islam. Muslim reverence to prophetic tradition preserved in the center of the Cathedral, now a Mosque, the Tomb of St. John the Baptist, believed to contain the severed head of the martyred Saint.

While the Muslims converted St. John's Cathedral into a mosque, they allowed the Christians to keep a number of churches, some of them prominent cathedrals of which the Antiochians are fiercely proud. In the 6th Century, Syria was overwhelmingly Christian. And only recently, when Pope John Paul II visited Damascus in May 2001, the Syrian Government greeted him with large posters proclaiming to all the world: "Welcome to Syria, the Cradle of Christianity!" By the time of the Papal visit, young Habib had become the Patriarch of Antioch and all the East, and the two stood side by side in the Patriarchal Cathedral, a symbol of the continuing search between East and West to attain the elusive unity of which much is said and little is done.

With the Arab-Islamic conquest of the 7th Century, Christianity in Syria dwindled, and many of its churches were deserted or converted to accommodate the new faith. Mhardé resisted the Islamization process and succeeded in preserving its identity as a bastion of Orthodoxy.

In the 6th Century, just before the rise and expansion of Islam, Syria claimed 600 cathedrals. One of them – the Cathedral of John the Baptist – has survived till today as the magnificent Umayyad Mosque. Such is the course of history. The conqueror takes on the citadels of the conquered. He transforms them to represent his own goals and symbols. The battles amongst men were not unlike the battles of Olympic gods of classical times.

The Cathedral was first a temple for the Aramaic god "Hadad" in the 10th Century B.C. Hadad was the god of rain, and of storms, greatly beloved by the peasants of the land. Under the Romans, it became a temple for Jupiter. We are more concerned with it as the Church of St. John the Baptist. When Emperor Theodosius the Great forbade in 379 the worship of idols and ordained Christianity as the religion of the state, the Temple of Jupiter was converted into a Christian cathedral. Sometime later it was called the Church of St. John the Baptist.

When the Muslims conquered Damascus in 635 there were many attempts to persuade the Christians to relinquish the famous Cathedral to the new rulers. When these efforts failed, the Caliph al-Walid took it by force, and legend has it that he himself was the first to share in the destruction of its Christian insignia.

The Muslims preserved its monumental form and transformed

Mhardé

While life in the major cities of Beirut, Damascus, Aleppo, Baghdad, Basra and Jerusalem was bubbling with new ideas, life in the rural areas was virtually unaffected. There, time had gone cyclical and tradition had a firm hold over the population. Habib was born in Mhardé, a village in history's cyclical time. Mhardé, however, had two characteristics that held it apart. It was exclusively Orthodox Christian, and it straddled the Orontes River. It was Christian in an Islamic environment, and it sat by a rebellious river that challenged Syrian terrain and ran north, a fitting symbolism for the youth of Mhardé.

In a sense, Mhardé was an island, a Toynbean fossil from early Byzantine times when Syria was truly the cradle of Christianity. Hundreds of Christian towns like Mhardé were scattered all over Syria. Churches and monasteries were everywhere. When the Antiochians speak of Damascus they start from the beginning. They recount the story of Saul entering Syria to persecute the Christians. On the way to Damascus he saw a vision, Christ the Savior calling him to join the faithful, not to persecute them. Saul the persecutor becomes St. Paul, the Apostle of Christianity, the beloved of the Orthodox and of the Gentiles.

To visit the Patriarchate today you walk the same street – "the street called Straight" – that Paul walked, and you literally feel the weight of history all around you.

The origins of these movements went way back to the late 18th Century, to Napoleon's invasion of Egypt, and to the 19th Century and to the Hatti reforms attempted by Ottoman Sultans. Then, they were in the context of an authoritarian state. Now they had a freer range under relatively liberal European constitutional systems. It must also be recalled in this context that an Arab, not a Greek, was elected as Antiochian Orthodox Patriarch in 1899, an important development in our Church.

Developments were not only political. At the religious level there were changes too. With the Soviet Revolution, the role of Orthodox Russia in the East declined. The role of the Russian Orthodox Church and of the Russian Imperial Society in Jerusalem came virtually to an end. Socialist Materialism opposed the Orthodox Church in Russia. These developments had a dilapidating effect on the Antiochian Orthodox Church and Community. The challenge of deprivation was faced by a response of self-reliance, and of singular reliance on God This was the scene when Habib, the future Patriarch, was in his infancy. And just at that moment a significant event took place. The Patriarch of Constantinople, distressed by the rise of a materialistic philosophy consequent to Soviet control of Holy Russia, sent a letter to all Churches in the world urging them to constitute a "Council of Churches", thus launching a new movement in the Middle East in which our future Patriarch Ignatius IV was to play a leading role.

of Nations, a new world organization devised and established to maintain peace and security in the new world order. France was given by the League mandate over Syria and Lebanon respectively. Britain was given mandate over Palestine and Iraq. During the War, Britain promised the Zionist Movement a national home in Palestine. The people in these states had been, from time immemorial, part of regional empires – Assyrian, Greek, Roman, Umayyad, Abbasid, Mamluk, and Ottoman. Theirs was now the novel experience of being nation states under Western tutelage. They regarded their future with some dread as they entered this terra incognita. Some accepted the new order as facts on the ground; some rejected the facts and wanted a larger political order, a familiar quasi-imperial order, an Arab nation perhaps, or more daringly an Islamic Caliphate. Some welcomed the modernization process brought by the French and the British, who were creating political systems in their own image. Some resented infidel modernization and craved a return to traditional Islamic values.

All births are difficult. The birth of the Arab states in the 1920s was particularly difficult. It was a period of defeat for Sunni Islam, represented by the Ottoman Empire, and a period of the rise of new regimes under Western tutelage. From a cultural perspective this was a cataclysm of gargantuan proportions.

1920 ushered in a decade of great change. New movements, new ideas emerged to deal with the new political situation.

New and powerful European fleets sailed oceans in the 15th and 16th Centuries, and "discovered" continents, islands, and civilizations unheard of before. The new economies of Europe in the 18th and 19th Centuries led European states to conquer lands and peoples in Asia, Africa, and Oceania, and open new markets and establish new colonies.

A huge and aging empire straddled the space between an awakening Europe and a dormant East, and was bound to occupy a central role in the conflagration now known as the First World War. For four centuries the Ottoman Empire ruled the Arab World from Istanbul, former Constantinople. The Ottomans were Sunni Muslims, and so was the Arab World. The Christian minorities in the Empire were given a sort of religious autonomy, and were in fact "protected" people, "dhimmis" in the Islamic emporium of its time.

The First World War led to the destruction of the Ottoman Empire. An Ottoman General, however, succeeded in salvaging a Turkish homeland from the wreckage of a dying empire and establishing the modern state of Turkey. Mustafa Kamal Ataturk (Father of the Turks), defeated invading armies in the wake of the Great War, rejected Ottoman traditional norms and imposed new Western ideas and institutions.

To the victor the spoils. Britain and France, victors in the War against the Ottomans, presided over the new Middle East. Iraq, Syria, Lebanon, Palestine were carved out of the Empire by the French and the British, and legitimized as such by the League

CHAPTER II

From Mhardé to Beirut

"No man is an island", a dictum engraved by the nations that fought and won the Second World War in the documents establishing the new United Nations Organization. As no man is an island, so also no nation, no movement. There is such an interaction and interweaving in peoples and events that the two cannot be separated. To better understand a person you have to understand his environment and the forces battling their way around him.

Political Situation

Born on April 17th, 1920, two years after the end of the Great War, an axial date in the world in general and in the Middle East in particular, the Patriarch, or rather the child Habib, was well positioned for a new role in a new time. For the first time in the long history of our cantankerous species a world war had been fought. New technologies and new forms of communication had made such war possible. Previous wars, no matter how large, had remained relatively local, regional and contained. European states fought with each other, and Asia took little note of them. Asiatic nations fought, and the West was hardly aware of what went on in that huge and distant continent. Tribes challenged each other, and made war and peace in an Africa hardly known beyond its frontiers.

selects from them what to him is of special importance and relevance. Writing about a man, like writing about a movement or nation, compels the writer to select, to focus, and to search for the underlying theme.

History is not unlike an ocean teeming with fish of all kinds. And fishing in it becomes an art – art with purpose. For some time I have been interested in commissioning the writing of a book on the Antiochian Orthodox Church. I wanted a book that could be read and understood by the average man. Several of my colleagues attempted drafts which I felt were not exactly what was needed. Prominent orientalists wrote books about Islam that had a wide audience. Russian Orthodox writers wrote about Orthodoxy and filled an important gap in the long-ignored Church of the East. No such book exists on the Antiochian Orthodox Church. This is not such a book. What this is, however, is the attempt of a serious Orthodox person to write about the head of our Church. The fact that it is written by a social scientist and not by a theologian or a cleric, acquires special significance and raises questions which are not usually raised in the context of church writings. This is more of an essay than a study, and therefore I have assigned myself enough freedom to delve into the subject so as to cover the relevant dimensions, which I hope will constitute a theme. Simply put, the theme is the man as he incorporates the values of his Church and of his community, and as he struggles to revive these values in light of the contemporary challenges of our techno-scientific age.

Indeed, the challenged culture might resort to its traditional beliefs as an assertion of its identity in the face of external influences. Fundamentalism in the Middle East is a symptom of this response, and a passionate resistance against change. The religious reformer nowadays is overwhelmed by the scope of the problem, by its diversity, and by the immense forces of gravity pulling him down. Here a psychological situation imposes itself and forces a decision early on. Shall one accept the status quo and bask in its familiarity, or shall one challenge it and upset the apple cart? If one challenges, will one succeed? To what extent? Is the result worth the effort? I believe the man I was talking with at Mar-Elias Shwayya had taken the decision in his youth. He realized he was different, and he willingly appropriated the distinguishing mark and sought to translate it into action. The fact that it brought frustrations and constraints in the process, did not diminish his determination.

It may be simplistic and naive to say things as they are, but there is an honesty in there worth bringing out from the start. The fact of the matter is I liked both the man and his ideas, and I felt a compulsion to write about him. A critic might say I am writing my own subjective version which does not always conform with the facts. There is an element of truth in this position. Every historian, every biographer, every critic has his own perspective. Writing, by definition, implies selection. The historian, something of whom there is in everyone who puts pen to paper, looks at the immense past with its peaks and valleys, its triumphs and defeats, its trials and errors, and

stones, with a flicker of spirit hovering uncertainly above. When he led his community in prayer, he saw a wide chasm between the depth and the glory of the liturgy and the poor and often neglected populace attending it. He bemoaned the formalism that was stripped of its substance. As in all serious reform, one tends to question, to disturb, to shake, to propose change. The more one takes on, the more assistants and disciples he needs to get his message across. And yet, to train assistants, to gain disciples, takes time. And time may not be in favor of the reformer. Also, if the reformer is to succeed, success is likely to be partial, and the process can be painful and frustrating. Yet change is in the air. It is the hallmark of the 21st Century. The 19th and 20th Centuries gave the philosophy of change and reform a big boost. The 21st Century is likely to expedite the process of change and even revolutionize it. Science and technology are opening new horizons and questioning established norms. The scientific method has gained credibility, and is pounding on the doors of every institution, secular or religious, national or commercial, to make them open up and respond to its challenge. The pounding has gained momentum through the globalization wave that has reached and permeated every nook and cranny of our planet. There is an ebb and a flow in the encounter between the old and the new, accommodation has been largely superficial and outward; this is as true in lay organizations as it is in religious. It is also true across cultures. We witness a culture assuming the outer forms of Western Civilization, while at the same time digging deeper into its past in an attempt to redeem it.

possibilities of the moment. The Church, like many an institution in the Middle East, has been dormant. Its cathedrals and churches have aged and wear the garb of neglect. Its flock has emerged from the womb of empires and sultanates impoverished and insecure. In the face of these stubborn facts, a Church leader has two options – to preside over existing institutions and existing conditions and meander his way through, or to challenge the facts and attempt to infuse them with life and futurity. The first option is easy and often the one most taken. The latter is the road less trodden, and therefore the more difficult. Reflecting on our history, excepting the recent brief period of technological change, we are amazed at how slow and unproductive it has been. Custom, tradition, and prevailing norms have governed human affairs. Change has been looked at as something strange, perhaps dangerous. Reformers took chances with their ideas and were often stoned, hanged, burned; reforms threatened existing elites and upset the rules of the game. Leaders worked hard to maintain their positions and were – as they remain today – unwilling to yield to upstarts. To the extent that the Church is also a human organization, it too has been subject to the passive routine that drags things down to the point of least resistance. It has had to accommodate to the dictates of the wielders of the sword and to compromise to survive.

The Patriarch was clearly a reformer, a challenger of old customs, a visionary. When he visited a monastery he saw it was in bad repair; it was basically silent, mostly a heap of

to southern ports in France. They planted wheat, barley, potatoes, onions, garlic and whatever the people consumed. The city by the sea, some fifty kilometers away, was distant, very distant, through winding roads carved more by the hoofs of horses and mules than by human hands. The monasteries and the faithful huddling by them acquired fierce independence from all that lay outside and a passionate attachment to the Church. The Church was their world.

The Patriarch visited the Monastery from time to time, mostly during the summer. As I sit with him conversing in the vaulted salon, a cloud creeps in silently by a window and stealthily exits through the door. Soon a sister cloud in the form of a dense mist follows the same path, as if to remind us that nature has lurked outside from time immemorial and is likely to stay long after we inside have departed the scene.

A look at the majestic stones of the Monastery's walls, reminiscent of defense fortresses, and you feel there is nothing ephemeral about these places. Feelings, however, are themselves ephemeral.

A Personality of Reform

In discussions with the Patriarch I got a glimpse of where our Church is, and how much is needed to bring it up to his expectations. Expectations for us mortals must be scaled down again and again to deal with the realities of life and the

their friends on special occasions. I used to meet the Patriarch in Mar-Elias Shwayya, a fortress-type monastery that nestles high in Dhur al-Shwayr, on the top of Mount Lebanon. It is easy to divine where our ancestors built their finest expressions of love and loyalty to their Creator. They looked for mountain tops. There the air is clear, the orientation is both spiritual and geographic. There you look up with awe, you look down with empathy and reverence at the mortals inhabiting these villages that themselves hang on cliffs overlooking the gorges of geological times. The fact that the Antiochians built their churches and monasteries on hilltops in Lebanon and Syria was an expression of the pride and certainty they felt during the first Christian Millennium. In going to the hills, the Antiochians were following the tradition of early Near Eastern religions who built their temples on hilltops. The Antiochians, like others before them and others after them, just took over these temples and transformed them into their own citadels of worship.

The Mar-Elias Monastery was entrusted to Bishop Elias*, a fitting name for the St. Elias Monastery he served. Like his predecessors of old, the Bishop in charge of a monastery works the land, and lives off its produce. The land stretches from the very hill of the Monastery to the valleys below, a virtual village. In rural days of the past, hundreds of hands worked this terrain. They tended fields of apples, of cherries, of figs and of grapevines. They tended the mulberry trees, in particular, as they were essential for feeding the worm of silk industry fame, not only for use in Lebanon, but also for export

He died on September 29th, 2009

modern Tunisia, attained world fame and challenged Rome itself for hegemony over the Mediterranean. A Phoenician Prince even threatened the Roman Potentate, reminding him that the Mediterranean was "a Phoenician lake, and no Roman may wash his hands in it without permission".

The new University that I now head sits upon centuries of history. It is the major achievement of a visionary, a Patriarch, tending his flock from his Patriarchal Residence in Damascus with a lynx eye on this educational institution seated on this Holy Hill.

In Mar-Elias Monastery

The more time I spent at the University, the more I felt the need to know more about Orthodoxy, more about the Founder, and more importantly I felt the duty to disseminate knowledge about the Church and its place in history. I met with the Patriarch frequently as he was Chairman of the University's Board of Trustees. I met him in historic monasteries, which like the Monastery of Balamand went deep into medieval history. Monasteries were fortresses on spectacular hills, on steep shoulders of valleys spread throughout Lebanon and Syria. The monasteries he stayed in were Patriarchal, in the sense that they were accountable to the Patriarchate in Damascus, and not to the Bishoprics of their regions. Each of these monasteries was truly a history in itself, a center of its community, attracting the faithful and

is perhaps something in man akin to most animals, a yearning for origins, for the simplicity of life as one knew it as a youth. So it seemed to me.

Bterram

Bterram held a strong gravitational pull for me, a small village like the fifty other villages of al-Kurah, and a bastion of Orthodoxy since early Christian times. Of the fifty, only five are non-Orthodox, being Maronite Christian or Muslim. As far as we recall, we the Salems have always lived in Bterram. My mother came from the Malik family, the only one of its ten brothers and sisters who stayed in the village and did not emigrate to Australia. My neighbors come from the Serhan family, the second or third in size of the six families constituting the village of 950 persons. Al-Kurah is an Orthodox stronghold, the only such rural concentration of the Faith in the country. It was fitting therefore for the Patriarch to establish a university in Balamand, a beautiful hill on the Western part of al-Kurah, looking down upon Tripoli and the Mediterranean. You cannot stand there on Balamand Hill and gaze at the infinite horizon without recalling Phoenician ships daring the storms and the distant unknown to reach new climes in which to trade and interact. In time, these intrepid Phoenicians from Tripoli, Byblos, Berytus, Sidon, Tyre, had established trading colonies around the Mediterranean coastline, and had even ventured into the Atlantic, looking at the dark beyond. One of these colonies, Carthage, now in

It is funny how words, gestures, moods, make or unmake situations. The pleasant course of the discourse that evening endeared me greatly to the head of our Church and persuaded me to keep as close to him as possible. I liked his manner, his tenacity, his humor, his absolute confidence in himself and in the position he held.

In 1988, when I was preparing to leave my post in government as the Presidency of Mr. Amine Gemayel was coming to its constitutional end, the Patriarch announced the establishment of the University of Balamand. I was proud that it was President Gemayel who signed the decree establishing it, and I followed with deep interest the rise of the University in North Lebanon. I left the government and founded a Think Tank (The Lebanese Center for Policy Studies) to study Lebanon and promote its democratic system. In 1993, and after two presidents had presided over the new University, the Patriarch, the incumbent President Ghassan Tueini, and the Philanthropist Issam M. Fares asked me to join the University as its President. The Board of Trustees was expected to meet in the Fall of 1993 to elect a President, and the Patriarch said, "They will elect you if you so choose." I accepted without hesitation. By then, I had got to know the Patriarch better; I wanted to transform the University of Balamand into a true institution of higher learning, a pride of Orthodoxy; and I was also getting interested in living in Bterram, the village of my birth, seven kilometers away from the University. Not a bad commuting drive in the hustle and bustle of the late 20th Century. There

students studying at the American International School and the American University of Beirut. The friendship between the Patriarch and Ghassan was special and it has endured the ups and downs of changing times. At the dinner, the Patriarch spoke eloquently and with feeling about Lebanon and its pluralistic democratic system. As long as appointments in the bureaucracy were not only on merit, but also on confessional considerations, he argued, we Orthodox insist on our share in the system. The President, a reasonable politician with a soft spot for the venerable cleric facing him, answered as if on cue: "But, Your Beatitude, the two closest advisors to the President in the entire state are Ghassan Tueini and Elie Salem. You see I care for the Orthodox community." "Not at all," answered the Patriarch with a wry smile, "Ghassan is not an employee. He is not in the system. He does not occupy a position in the administration. He is with you as a friend, free to come free to go. As for Elie, not only is he not in the administration, Elie is hardly an Orthodox. He hardly knows where the qullayi is, and what it is all about." He said it tongue in cheek. I knew that the qullayi is of Greek origin. It stands for the residence of the Bishop, and I knew that the qullayi in Beirut to which he was referring was in the Ashrafiyyah quarter, and I knew Bishop Elias (Audi) there, and I visited him frequently to brief him on the political matters with which we were dealing. In humor, I answered, "What is a qullayi and where is it located?" "You see," responded the Patriarch, "we the Orthodox are not well represented, and here the closest to you hardly knows anything about us."

Priests, who leave you with the possibility of rising from the dead as our resurrected God-Man. Church life in my village followed a tradition dating back to the first centuries of Christianity. It was only after I graduated from college that I delved deep into the Bible and into Church history. Recalling the Bishop in black garb revived my intellectual interest in the Church, but I was deprived of the chance of talking in depth with those who had made of the Church their life commitment. When I joined the Government in the 1980s I knew that the Bishop of Balamand fame had become the Patriarch of Antioch and all the East for the Greek Orthodox Church. To the President of the Republic Amine Gemayel and to colleagues in the Cabinet he was known for his religiosity and his transcendence in matters of daily temporal affairs. He was revered and greatly respected for his clerical position, which he never exploited for worldly ends.

It came as a bit of a surprise when one evening there he was at the Presidential Palace urging the President to be fair in his confessional considerations in administrative appointments. He felt that the President was filling posts originally allocated to the Orthodox by Maronite candidates. He must have been under immense pressure by leading politicians in the Orthodox Community to make such a representation to the President directly. The President asked Ghassan Tueini and myself to be present at the meeting and at the dinner that followed. Although the Patriarch knew me only from a distance, he was extremely warm and attentive. He and Ghassan Tueini had been close friends as young

lived for years under imperial regimes that constrained their religious practices. The deterioration of their social, economic, and political conditions under the Ottomans weakened their ties and left them ill prepared for the challenges of the post-Ottoman period.

The First Encounters

Until I joined the University of Balamand as President in late 1993, I really did not know the man. He was a friend of my father and of my cousin, Dr. Khalil Salem, then Director General of the Ministry of Finance, who was assassinated early in Lebanon's internal war in 1976. The figure of a youthful mid-size cleric with dark black beard talking to my father and to Khalil in my village stands out in my memory. Our paths may have crossed in the 1940s at the American University of Beirut. By the time his name became familiar to me, he was Bishop Hazim rebuilding the historic Balamand Monastery spiritually, culturally, and physically. He was known to my family as a brilliant cleric – a philosopher, a mystic, and a builder and determined reformer.

To me, like all Orthodox youths of my generation, the Church was there – a given, a home, a solace, a cathedral, a priest, the rituals that are an integral part of its being. You get baptized in the Church. You get married in the Church. You celebrate its festivals and are tugged into deep sleep by its

In writing about the Patriarch, I dwell on a subject above the clamor of events that pound their way for our attention day by day, hour by hour. Perhaps I am not the most qualified person to write on a historic figure of the Antiochian Orthodox Church. Certainly, I am not a writer, nor am I driven to publish one more book. I tell my colleagues at the University of Balamand that my future is behind me. Hence, I may write or act with great freedom, oblivious of either failure or success. I write about the Patriarch simply because I like to do so. Somehow, in our so-called or mis-called developing world, the good is forgotten, the brilliant isolated, and the dedicated misunderstood. Perhaps because of that, I feel it is imperative to write about a person gifted in mind and spirit, yet excessively humble. Sometimes you write about a person to discover yourself. You put yourself there as you try to understand the other and attempt to explain him. In writing about the Patriarch I am perhaps on a journey of self-discovery. The Patriarch is the head of my Orthodox Church. He comes from a small town in Syria, I come from a small village in Lebanon, both of which are exclusively Orthodox. My village Bterram was old long before Christ walked amongst men, as is evidenced by the remains of a temple in it for the Phoenician God Ashmon. We Orthodox villagers follow the path ordained for us by the Church, namely baptisms, Sunday services, weddings, saints' feasts, and last rites. Yet we know little about Orthodoxy itself as doctrine, as history, as moral imperative. Although the Antiochian Church is on firm historical foundations, it did experience setbacks. In setbacks, people experience weakness in their faith; the Antiochians

experience a different locale. Though Lebanese and Syrians are pretty much the same, the Syrians have preserved certain characteristics that I cherish; namely hospitality, an Arab form of respect and decorum, and a simplicity now rare in technologically advanced societies, and in Lebanon's cosmopolitan Capital.

That two countries so close in language, history, religion and social mores should have such turbulent relations is one of the unfathomable facts of history. They justify the words of a leading poet: "Near to each other on mountains furthest apart." During the 1980s, when I held a political post in Lebanon, I tried hard to work out a document governing the ties between these two sister states. Documents, however, get smothered by unfolding events, by errors in judgment, by external interventions, and by ambitions of ruling elites.

Frontiers are expressions of political facts, they separate, but only in part. The Greek Orthodox Community, for example, remains one in Syria and in Lebanon, and is headed by one Patriarch. The Patriarch could be Lebanese or Syrian. Bishops are also assigned to their archdioceses without much consideration as to whether they are Syrian or Lebanese. A Syrian Bishop could head an Archdiocese in Lebanon, and vice versa. The Archdiocese of Akkar also includes regions in Syria. While the Antiochian Orthodox are now spread throughout the world, and particularly in the Americas, the Bishops presiding over these diverse communities are Lebanese and Syrians.

CHAPTER I

Introduction

Road to Damascus

I am writing this book at a time of tension between Lebanon and Syria. This has been an unfortunate pattern off and on for some time. The Patriarch Ignatius IV (Hazim), the subject of the book, lives in Damascus. I live in a small village, Bterram in al-Kurah, Lebanon, and travel often to Syria to meet with him. There are five crossings on the Lebanese Syrian frontier. Under normal conditions al-Masna' crossing tests human tolerance and endurance. A brief glance at this narrow one-car-at-a-time crossing reveals the complex bureaucratic procedures characteristic of the underdevelopment of Middle Eastern states. Literally hundreds of trucks line the roadsides on either side of the frontier. Some wait their turn for days or even weeks before they are cleared to move on. Buses, private cars, taxis compete for a place in any line that promises early deliverance. Drivers race from one office to the other seeking the attention of an officer, pleading for his signature. I sit stoically in the car reading a book as my enterprising driver Saadeh runs between cars carrying bundles of papers to be signed and cleared. His cheerfulness infects me. I learn to take bureaucracies in my stride, and to exhibit a smile.

Though the crossing is agonizing, I seem drawn by a gravitational pull towards Damascus. It must be a built-in drive in us to move on, to travel, to leave homeground and

rarely keep rigorous records. If we do, the effort will be off and on, and not too easy to locate. Certainly our Patriarch has little interest in his own person to keep a record of his life and his achievements. Nor do members of his family.

As this is "my" book, and "my" understanding of the Patriarch, I assume full responsibility for all errors of fact and of interpretation. As Theology is not my field, I kept theological issues to a minimum. It is for others schooled in theology and in the Greek Orthodox religion and history to undertake this task.

I thought it best to have this essay published in English and Arabic simultaneously. I included as many relevant pictures as I could locate in the hope that pictures will add a new dimension which words cannot express. Knowing the family and the person, it is obvious why we have so few pictures of the family and of the youth in his early Mhardé years.

I am grateful to all who helped me in this endeavor, with special thanks to my dear friend, the younger brother of his Beatitude, Dr. Yusuf Hazim. Yusuf was always there by my side ready to help. Father Georges Berberi helped me as research assistant. Dr. Georges Nahas read the manuscript and made useful observations. Professor Carla Serhan translated the text into Arabic. Ms. Rima Sarraf worked closely with me and with Dr. Georges Dorlian in preparing the book for publication. Dr. Philip Hugh Blair and Dr. Hassan Abiad helped in editing the manuscript. Special thanks go to my staff, and particularly to my assistant, Ms. Itamar Diab, and my executive secretary, Ms. Nada Jabbour who were largly responsible for all logistics.

Elie A. Salem

PREFACE

The story of the young man from Mhardé who now occupies the throne of Antioch is one worth telling.

I just started writing it without thinking long about why I was doing it. It seemed a pleasant project to undertake. Many dignitaries from the region and abroad who visit the Patriarch inquire about his life, his education and his works. There was none to be had. Here is the leading figure in contemporary Orthodoxy, and little is written about him. I tried to fill this gap a few years back. Accordingly, I edited his leading sermons, articles, and speeches in a book entitled *Mawaqif Wa Aqwal* published in 2001. It was translated into English as *Orthodoxy* and The Issues of Our Time*.

While this book is biographical I took liberties in putting our Patriarch in the context of his time. To write about a person one has to delve into his background, his time, his schooling, his surroundings.

I tried to collect material to the best of my ability.

In preparing this essay I conducted interviews with his Beatitude in his office in Damascus. I interviewed members of his family, and collected information available in booklets and pamphlets.

This is not a scholarly and comprehensive biography. I am not qualified to do that, nor was this my interest in starting my account.

We in the Middle East belong largely to the oral culture; we

* I am using Orthodox, Antiochian Orthodox, and Greek Orthodox interchangeably.

FROM MHARDÉ
TO
THE THRONE OF ANTIOCH
The Life and Times of Patriarch Ignatius IV

A Biographical Essay

by

ELIE A. SALEM

FROM MHARDÉ
TO
THE THRONE OF ANTIOCH
The Life and Times of Patriarch Ignatius IV

A Biographical Essay

Publications of
the University of Balamand